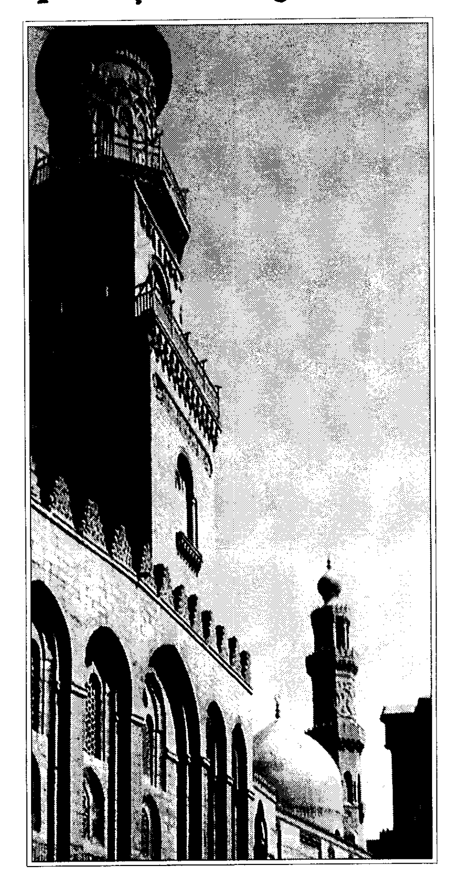


رمضان
فى الزمان الجميل

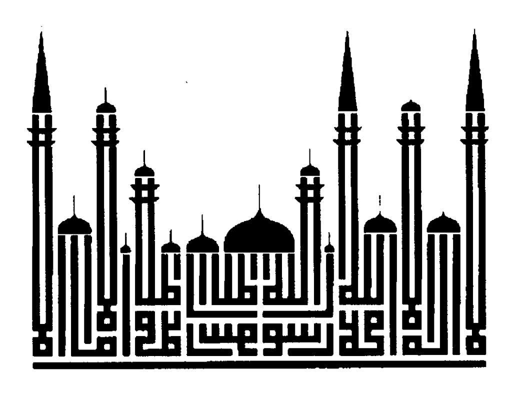
عرفة عبده على

اشراف فنی : مصطفی کامل

رمضان في مصر الإسلامية







رمضان فى مصر الإسلامية

يتميز
شهر رمضان دائما بخصوصية
اسلامية، ويحتفى المسلمون فى جميع
انحاء العالم الاسلامى بهذا الشهر الكريم المبارك
إذ كانوا يستقبلونه بالحفاوة والتكريم ويحيونه
بالعبادات والابتهالات، كما كانوا يغدقون فيه أنواع البر
والاحسان على الفقراء والمعوزين، أما مصر التى تورثت
الاحتفال بالمناسبات والأعياد الدينية فقد أولت هذا
الشهر عناية خاصة منذ أوائل العصر الاسلامى،
وحدثنا المؤرخ «ابن المأمون» عن استعدادات
القاهرة لهذا الشهر الكريم فقال:

«كانت العادة جارية من الأيام الأفضلية فى أخر جمادى الآخر من كل سنة ان تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم ويحذر من بيع الخمر. فرأى الوزير المأمون لما ولى الوزارة بعد الأفضل ابن أمير الجيوش ان يكون ذلك فى سائر أعمال الدولة فكتب به إلى جميع ولاة الأعمال وأن ينادى بأنه من تعرض لبيع شىء من المسكرات أو لشرائها سرا أو جهراً فقد عرض نفسه لتلفها وبرئت الذمة من هلاكها».

وكان القاضى أبو عبدالرحمن عبدالله بن لهيعة الذى ولى قضاء مصر سنة ١٥٥ هـ أول قاض خرج لنظر الهلال فى شهر رمضان، ثم أصبحت العادة بعد ذلك ان يخرج القضاة لرؤية هلال رمضان، فقد كانت تعد لهم دكة على سفح جبل المقطم عرفت «بدكة القضاة» يخرجون إليها لنظر الأهلة. فلما كان العصر الفاطمى بنى قائدهم بدر الجمالى مسجدا له على سفح المقطم اتخذت مئذنته مرصدا لرؤية هلال رمضان.

وفى كتابه «النقط» يقول الشريف الجوانى:

«كان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاث أيام طافوا يوميا على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر فيبدأون بجامع المقسى ثم بجوامع القاهرة ثم بالمشاهد ثم بالقرافة ثم بجامع مصر ثم بمشهد الرأس لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وازالة شعثه وكان أكثر الناس مما يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليون يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضى لحضور السماط».

وفى القرن الثالث الهجرى اهتم أحمد بن طولون بأمر العمال فى شهر رمضان اهتماما خاصا فقد خرج مرة لزيارة مسجده وقت بنائه وكان ذلك فى شهر رمضان، فرأى الصناع يشتغلون إلى وقت الغروب، فقال: متى يشترى هؤلاء الضعفاء افطارا لعيالهم، اصرفوهم العصر، فأصبحت سنة من ذلك الوقت. فلما فرغ شهر رمضان قيل له: لقد انقضى شهر رمضان فيعودون إلى عادتهم، فقال: «قد بلغنى دعاؤهم وقد بركت به، وليس هذا مما يوفر العمل».

عصر الدولة الفاطمية

احتفلت الدولة الفاطمية بشهر رمضان احتفاء لم يسبق له مثيل، فخصته باحتفالات يعد بعضها تمهيدا لحلوله، والبعض لإعلان رؤية هلاله وهى احتفاليات غنية بمظاهر العظمة، شاملة لأنواع البر والصدقات مما يرفه عن الفقراء ويدخل السرور على الأغنياء. فإذا كان الأسبوع الأخير من شهر شعبان، عهد إلى قضاة مصر بالطواف بالمساجد فى القاهرة وباقى الاقاليم لتفقد ما تم اجراؤه فيها من اصلاح وفرش وتعليق المسارج والقناديل.

ويصف الرحالة «ناصر خسرو» الذى زار مصر فى القرن الخامس الهجرى، التنور «الثريا» الذ« أهداه الخليفة الحاكم بأمر الله إلى مسجد عمرو بالفسطاط، بأنه كان يزن سبعة قناطير من الفضة الخالصة، كما يقول عن جامع عمرو: «إنه كان يوقد فى ليالى المواسم والأعياد أكثر من سبعمائة قنديل، وإن المسجد يفرش بعشر طبقات من الحصير الملون بعضها فوق بعض».

وإذا ما انتهى شهر الصوم تعاد تلك «التنانير» وكذا القناديل والمشكاوات إلى مكان اعد لحفظها فيه داخل المسجد. كذلك كانت الدولة تخصص مبلغا من المال لشراء البخور الهندى والكافور والمسك الذى يصرف لتلك المساجد فى شهر رمضان.

وعن مراسم سحور الخليفة قال «ابن المأمون»:

يجلس الخليفة فى الروشن إلى وقت السحور والمقرئون تحته يتلون عشرا ويطربون بحيث يشاهدهم الخليفة ثم حضر بعدهم المؤذنون واخذوا فى التكبير وذكر فضائل السحور وختموا بالدعاء وقدمت المخادّ للوعاظ فذكروا فضائل الشهر ومدح الخليفة والصوفيات وقام كل من الجماعة للرقص ولم يزالوا إلى ان انقضى من الليل اكثر من نصفه. فحضر بين يدى الخليفة استاذ بها أنعم عليهم وعلى الفراشين واحضرت جفان القطائف وجرار الجلاب برسمهم فأكلوا وملأوا أكمامهم وفضل عنهم ما تخطفه الفراشون ثم جلس الخليفة فى السدلا التى كان بها عند الفطور وبين يديه المائدة معبأة جميعها من جميع

الحيوان وغيره والقعبة الكبيرة الخاص مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة وحضر الجالسان واستعمل كل منهما ما اقتدر عليه وأوما الخليفة بأن يستعمل من القعبة فيفرق الفراشون عليهم اجمعين كل من تناول شيئا قام وقبل الأرض وأخذ منه على سبيل البركة لأولاده وأهله لأن ذلك كان مستفاضا عندهم غير معيب على فاعله. ثم قدمت الصحون الصينى مملوءة قطائف فأخذ منها الجماعة الكفاية وقام الخليفة وجلس بالباذهنج وبين يديه السحورات المطيبات من لبئين رطب ومخض وعدة أنواع عصارات وافطارات وسويق ناعم جريش جميع ذلك بقلويات وموز ثم يكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفا.. وحضر الجلساء وأخذ كل منهم فى تقبيل الأرض والسؤال بما ينعم عليه منه فتناوله المستخدمون والأستاذون وفرقوه فأخذه القوم فى أكمامهم ثم سلم الجميع وانصرفوا.

سماط رمضان بـ «قاعة الذهب»:

تعددت الأسمطة الرسمية التى كان يحضرها الخليفة الفاطمى بنفسه، فكان السماط يمد فى «قاعة الذهب» بالقصر الشرقى الكبير فى ليالى رمضان وفى العيدين وليالى الوقود الأربعة والمولد النبوى وخمسة موالد «الحسين، السيدة فاطمة، الإمام على، الحسن، الإمام الحاضر».. بالاضافة إلى «سماط الحزن» فى يوم عاشوراء.. ويقول المؤرخ «ابن الطوير» عن سماط سماط ليالى رمضان.

فإذا كان اليوم الرابع من شهر رمضان، رتب عمل السماط كل ليلة بقاعة الذهب إلى السادس والعشرين منه ويستدعى له قاضى القضاة ليالى الجمع توقيرا له ولايحرمونهم الافطار مع أولادهم واهاليهم.. ويحضروا الوزير فيجلس صدر السماط فان تأخر كان ولده أو أخوه وان لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب.

ويهتم به اهتماما عظيما تاما، بحيث لايفوته شىء من اصناف المأكولات الفائقة والاغذية الرائقة وهو مبسوط فى طول القاعة، ممتد من الرواق إلى ثلثى

القاعة والفراشون قيام لخدمة الحاضرين وحواشى الاستاذين، يحضرون الماء المبخر فى كيزان الخزف برسم الحاضرين.

ويكون انفصالهم العشاء الآخرة، فيعمهم ذلك ويصل منه شىء إلى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض، يأخذ الرجل ما يكفى جماعة، فإذا حضر الوزير أخرج إليه مما هو بحضرة الخليفة، وكانت يده فيه، تشريفا له وتطبيبا لنفسه، وربما حمل لسحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر.. ومبلغ ما ينفق فى شهر رمضان لسماطه، مدة سبعة وعشرين يوما، ثلاثة آلاف دينار.

ومن الأسواق التى كانت تنشط فيها الحركة التجارية خلال شهر رمضان، سوق الشماعين بالنحاسين خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، إذا يحدثنا، المقريزى، عمدة مؤرخى مصر الاسلامية، فيقول: «كان به فى شهر رمضان موسم عظيم، لكثرة ما يشترى ويكترى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها، ومن المزهرات العجيبة الزى المليحة الصنعة، ومنها ما يحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها قنطارا. وما فوقه، كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح، فيمر فى ليالى شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه»! ثم تخسر مؤرخنا المقريزى على تغير الأحوال!! وكان الاطفال يلتفون حول احدى الشموع وبأيديهم الفوانيس يغنون ويتضاحكون ويمضون بموكبهم المنير فى حوارى القاهرة من بعد الافطار حتى صلاة التراويح.

ايضا حدثنا المقريزى عن «سوق الحلاويين» الذى كانت تروق رؤيته فى مواسم شهر رجب ونصف شعبان وخلال شهر رمضان و«كان أبهج الاسواق ومن احسن الاشياء منظرا، فكان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها تسمى العلاليق، ترفع بخيوط على الحوانيت، فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل، تشترى للأطفال، فلا يبقى جليل ولاحقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده.

أما سوق السمكرية داخل باب زويلة «بوابة المتولى بالغورية» فيعج بأنواع «الياميش» تفرش على أبواب البدالين هى «وقمر الدين». وكانت وكالة «قوصون» بشارع باب النصر التى ترجع إلى القرن الثامن الهجرى، مقر تجار الشام ينزلون فيها ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخروب. ولما تخربت وكالة قوصون فى القرن التاسع انتقلت تجارة المكسرات إلى وكالة مطبخ العمل بالتمبكشية بالجمالية وكانت مخصصة لبيع أصناف النقل كالجوز واللوز ونحوهما.

ولم يقتصر شهر رمضان على تقليد شراء الشموع والمكسرات فحسب، بل ان مصر اختصت ببعض انواع الحلوى مثل (القطايف) و(الكنافة)، إذ يقال ان الكنافة صنعت خصيصا للخليفة الأموى سليمان بن عدالمالك كما قيل انها صنعت للخليفة معاوية بن أبى سفيان. وكانت الكنافة والقطايف موضع مساجلات بين الشعراء، فمن ذلك قول أحدهم:

أهلا بشهر غدا فيه لنا خلف

أكل القطائف عن شرب ابنة العنب

وآخر:

قطائف قد حشيت باللوز

والسكر الماذى حشو الموز

وثالث:

وحقك ما أوليتنى من قطائف

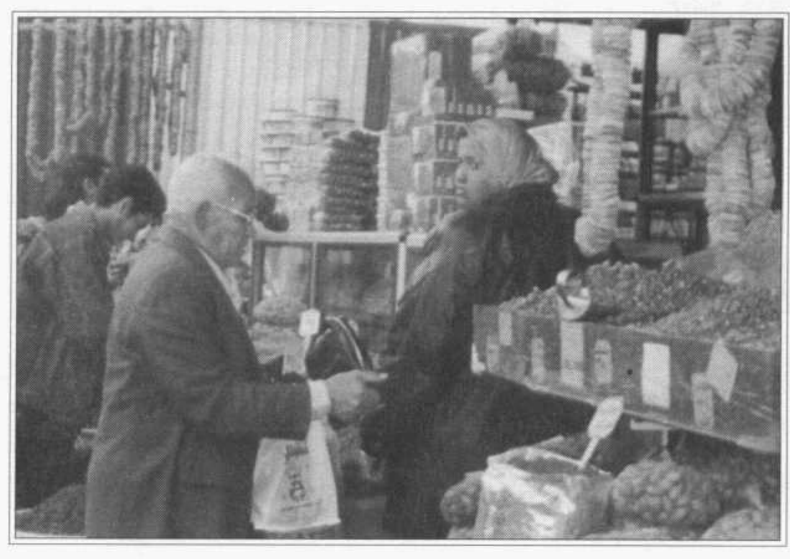
ألذ وأحلى من وصال القطائف

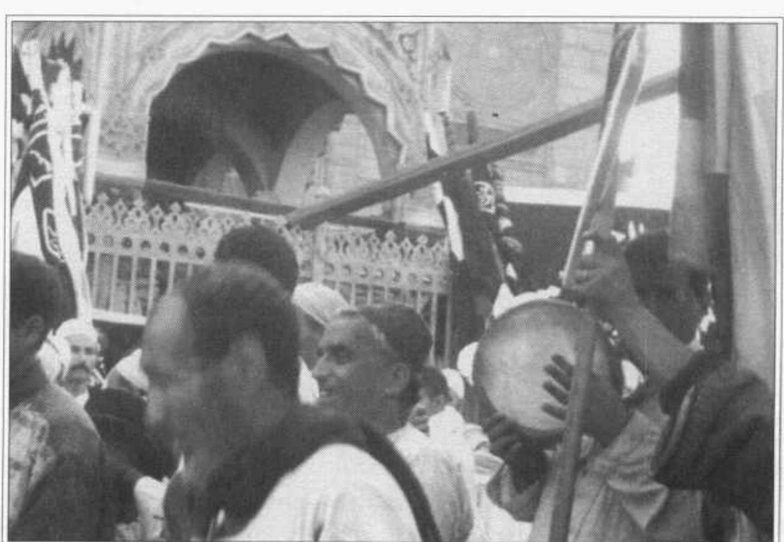
وقد سحنت مثل العتاب حلاوة

ألم ترها ملفوفة كالصحائف

أما عن الكنافة فقد قالوا فيها:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر







وجاد عليها سكر دائم الدر

وتبا لأوقات المخلل انها تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

وآخر:

تا الله ما لـثم المراشـــف

كلا ولاضم المعاطف بألذ وقعا فى حشاى من الكنافة والقطايف

ويكفى ان نذكر ان للعلامة جلال الدين السيوطى رسالة ظريفة عنوانها منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف لنتبين ما كان للقطايف والكنافة من أهمية فى شهر رمضان فى مصر فى العصور الوسطى.

ولم تكن مظاهر الاحتفال بشهر رمضان مقصورة على ما يباع ويشترى فى الاسواق أوما يقدم على الموائد فحسب، بل كان لها تقاليد رسمية التزم بها خلفاء الدولة الفاطمية. فقد كان الخليفة يخرج فى مهرجان اعلان حلول شهر رمضان، من باب الذهب «أحد أبواب القصر الفاطمى» متحليا بملابسة الفخمة وحوله الوزراء بملابسهم المزركشة، وخيولهم المطعمة بسروجها المذهبة، وفى أيديهم الرماح والاسلحة المكفتة بالذهب والفضة والاعلام الحريرية الملونة، وأمامه الجند تتقدمهم الموسيقى. ويسير فى هذا الاحتفال تجار القاهرة من البزازين والكفتيين «صانعى المعادن» والصاغة وغيرهم، الذين كانوا يتبارون فى اقامة مختلف انواع الزينة على حوانيتهم، فتبدو الشوارع والطرقات فى أبهى زينة وأجمل منظر.

وكان موكب الخليفة يبدأ من بين القصرين «شارع المعز بالصاغة الآن» ويسير فى منطقة الجمالية حتى يخرج من باب الفتوح «أحد أبواب سور القاهرة الشمالية» ثم يدخل من باب النصر عائدا إلى باب الذهب «بالقصر» وفى اثناء الطريق توزع الصدقات على الفقراء والمساكين. وحينما يعود الخليفة إلى القصر يستقبله المقرئون بتلاوة القرآن الكريم فى مدخل القطر ودهاليزه حتى يصل إلى خزانة الكسوة الخاصة فيغير ملابسه ويرسل إلى كل أمير فى دولته بطبق من الفضة مملوء بالحلوى، تتوسطه صرة من الدنانير الذهبية

وتوزع الكسوة والصدقات والبخور واعواد المسك على الموظفين والفقراء، ثم يتوجه لزيارة قبور ابائه حسب عاداته، فإذا ما انتهى من ذلك أمر بأن يكتب إلى الولاة والنواب بحلول شهر رمضان.

وكان الخليفة الفاطمى يصلى أيام الجمع الثلاث، الثانية والثالثة والرابعة، على الترتيب التالى، الجمعة الثانية فى جامع الحاكم والثالثة فى الجامع الأزهر، أما الجمعة الرابعة التى تعرف بالجمعة «اليتيمة» فكان يؤديها فى جامع عمرو بالفسطاس وكان يصرف من خزانة التوابل الند وماء الورد والعود برسم بخور الموكب والمسجد وعقب صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان يذاع بلاغ رسمى عرف بـ سجل البشارة.

وآخر ليلة من الشهر الكريم، كان القراء والمنشدون يحيونها بالقصر الشرقى الكبير، والخليفة يستمع من خلف ستار، وفى نهاية السهرة كان الخليفة ينثر على الحاضرين دنانير الذهب.

عصر سلاطين المماليك

واستمرت العناية بالاحتفال بحلول شهر رمضان ورؤية هلاله فى العصر المملوكى كذلك فكان قاضى القضاة يخرج لرؤية الهلال ومعه القضاة الأربعة كشهود ومعهم الشموع والفوانيس ويشترك معهم المحتسب وكبار تجار القاهرة ورؤساء الطوائف والصناعات والحرف. وكانوا يشاهدون الهلال من منارة مدرسة المنصور قلاوون المدرسة المنصورية «بين القصرين» لوقوعها امام المحكمة الصالحية «مدرسة الصالح نجم الدين بالصاغة»، فإذا تحققوا من رؤيته اضيئت الأنوار على الدكاكين وفى المآذن وتضاء المشكاوات فى المساجد ثم يخرج قاضى القضاة فى موكب تحف به جموع الشعب حاملة المشاعل والفوانيس والشموع حتى يصل إلى داره، ثم تتفرق الطوائف إلى أحيائها معلنين الصيام. وقد وصف الرحالة «ابن بطوطة» عام ٧٢٧ هـ، الاحتفال برؤية هلال رمضان فى مدينة «أبيار» بالقرب من المحلة الكبرى، فقال: وعادتهم فى

يوم الركبة ان يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر بدار القاضى، ويقف على باب الدار نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلا «باسم الله سيدنا فلان الدين» ويجلسه النقيب فى موضع يليق به، فإذا تكاملوا هنالك، ركبوا جميعا وعلى رأسهم القاضى، وتبعهم من بالمدينة من الرجال والصبيان، حتى إذا ما انتهوا إلى موضع مرتفع خارج المدينة ـ وهو مرتقب الهلال عندهم ـ وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل القاضى ومن معه يرتقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس، فيكون ذلك دليلا على ثبوت رؤية فيوقد التجار الشموع بحوانيتهم وتكثر الأنوار فى الطرقات والدروب والمساجد.

ويقول المؤرخ العظيم «ابن إياس» عن احتفال ليلة رؤية الهلال فى عام ٩٢٠ هـ ـ عهد السلطان الأشرف قانصوه الغورى: وأما فى ليلة رؤية الهلال، حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية وحضر الزينى بركات بن موسى المحتسب، فلما ثبتت رؤية الهلال وانفض المجلس، ركب المحتسب ومشت قدامه السقاءون بالقرب، ووقدوا له الشموع على الدكاكين، وعلقوا له التنانير والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين إلى سوق مرجوش، إلى الخشابين، إلى سويقة اللبن، إلى عند بيته «بيت الزينى بركات».

وفى مستهل الشهر يجلس السلطان فى ميدان القلعة، ويتقدم إليه الخليفة العباسى والقضاة الأربعة بالتهنئة ثم يستعرض أحمال الدقيق والخبز والسكر وكذا الغنم والبقر المخصصة لصدقات رمضان يعرضها عليه المحتسب بعد ان يكون قد استعرضها فى انحاء القاهرة تتقدمها الموسيقى، فينعم على المحتسب وعلى كبار رجال الدولة.

وقد اهتم سلاطين المماليك بالتوسع فى البر والاحسان طوال الشهر المبارك، فالسلطان برقوق «٧٨٤ هـ – ٨٠١ هـ» اعتاد طوال أيام ملكه، ان يذبح فى كل يوم من أيام رمضان خمسة وعشرين بقرة، يتصدق بلحومها بالاضافة

إلى الخبز والاطعمة على أهل المساجد والخوانق والروابط والسجون بحيث يخص كل فرد رطل لحم مطبوخ وثلاثة أرغفة وسار على سنته من أتى بعده من السلاطين فأكثروا من ذبح الابقار وتفريق لحومها كما رتب سلاطين المماليك مطابخ لافطار الصائمين من المساكين وتوزيع الصدقات عليهم، وقد بلغ عددهم فى مطابخ السلطان بيبرس: خمسة آلاف فى كل يوم من أيام شهر رمضان، كذلك اعتاد سلاطين المماليك عتق ثلاثين رقبة بعدد أيام الشهر الكريم بالاضافة إلى كافة أنواع التوسع على العلماء واصحاب الجامكيات الذين تصرف لهم رواتب اضافية فى شهر رمضان خاصة ما يصرف من السكر وقد بلغ راتب السكر فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، سنة ٧٤٥ هـ ـ ثلاثة آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار منها ستون قنطارا فى كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية.

أما العامة من الناس، فقد كانت تكثر زياراتهم ولقاءاتهم فى هذا الشهر وكثير منهم كانوا يحيون ليالى رمضان فى المساجد بقراءة القرآن وصحيح البخارى ومسلم وصلاة التراويح كما جرت العادة فى ذلك العصر عند ختم القرآن بأحد المساجد ان يحتفل بذلك احتفالا كبيرا، فتنشد القصائد والمدائح النبوية، والتكبير والدعاء جماعة، ثم يؤتون بفرس أو بغلة ليركبها القارىء الذى تولى قراءة الختمة ويزف إلى بيته فى موكب حافل، يقوده دراويش الصوفية بالدفوف والرايات.

وكانت قراءة صحيح البخارى بالقلعة من أهم المظاهر الرسمية لإحياء شهر رمضان وقد جرت العادة فى عهد السلطان الأشرف شعبان «٧٦٤ هـ ٧٧٨ هـ» ان تبدأ قراءة البخارى فى أول يوم من رمضان بين يدى السلطان، بحضور القضاة الاربعة والفقهاء، واستمر الأمر حتى عصر السلطان المؤيد شيخ ابوالنصر «٨١٥ هـ ـ ٨٢٤ هـ» الذى جعل قراءة البخارى تبدأ من أول شهر شعبان حتى السابع والعشرين من رمضان، داعيا إليها جميع العلماء وطلاب الازهر.. فإذا ختم البخارى، احتفل السلطان احتفالا كبيرا بالقلعة وترسل الخلع إلى القضاة والعلماء وتوزع الصدقات على الفقراء.

واستمر الاحتفال بحلول شهر رمضان وبرؤية هلاله فى عصر الدولة العثمانية، ففى التاسع والعشرين من شعبان، كان القضاة الأربعة يجتمعون وبعض الفقهاء والمحتسب بالمدرسة المنصورية فى «بين القصرين» ثم يركبوا جميعا يتبعهم أرباب الحرف وبعض دراويش الصوفية، إلى موضع مرتفع بجبل المقطم حيث يرتقبون الهلال، فإذا ثبتت رؤيته، عادوا وبين ايديهم المشاعل والقناديل إلى المدرسة المنصورية، ويعلن المحتسب ثبوت رؤية هلال رمضان، ويعود إلى بيته فى موكب حافل يحيط به أرباب الطرق والحرف بين أنوار المشاعل، فى ليلة مشهودة «فى الفرجة والقصف» على حد تعبير مؤرخنا «ابن اياس» وفى صباح أول أيام رمضان، يصعد المحتسب والقضاة الأربعة إلى القلعة لتهنئة «الباشا» الوالى، فيخلع عليهم قفاطين مخمل كما جرت العادة.

وكان المؤرخ العظيم «عبدالرحمن الجبرتى» قد أشار فى تاريخه إلى سنن وطرائق فى مكارم الأخلاق لأهل مصر لاتوجد لغيرهم فيقول.. ففى بيوت الأعيان كان السماط يمد مبذولا للناس ولايمنعون من يريد الدخول.. وكانت لهم عادات وصدقات فى المواسم الدينية خاصة فى ليالى رمضان، يطبخون فيها الارز باللبن والزردة ويملأون من ذلك قصاعا كثيرة ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين ويجتمع فى كل بيت الكثير من الفقراء، فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا ويعطونهم بعد ذلك دراهم ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوز بهم، خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية وسائر الحلوى!

وفى زمن الحملة الفرنسية فى مصر، أشار الجبرتى إلى أمر «سارى عسكر الفرنسيس بونابرته»!.. بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين ولايتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق، ولا يشربون الدخان ولاشيئا من ذلك بمرأى منهم، كل ذلك لاستجلاب خواطر الرعية.

وفى ليلة الرؤية، كان قاضى القضاة والمحتسب ومشايخ الديوان يجتمعون ببيت القاضى «المحكمة» ببين القصرين وعند ثبوت الرؤية، يخرجون فى موكب

تحيط بهم مشايخ الحرف و«جملة من العساكر الفرنساوية»! وتطلق المدافع والسواريخ من القلعة والازبكية.

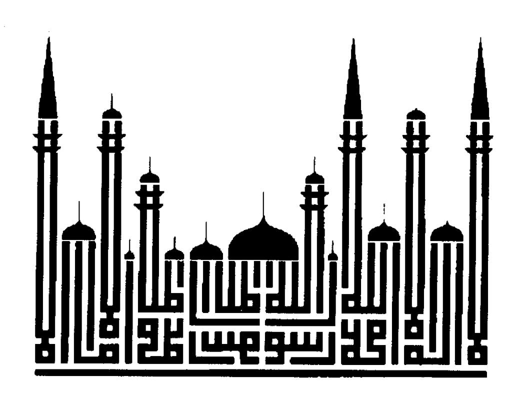
وكانت كسوة الكعبة تودع بمشهد مولانا الإمام الحسين حتى موعد «دوران المحمل» فى الاسبوع الثالث من شهر شوال وفى رمضان ١٢١٥ هـ يقول الجبرتى: «توجه الوكيل «الجنرال فوربيه» ومشايخ الديوان إلى المشهد الحسينى لانتظار حضور سارى عسكر الفرنسيس «نابليون بونابرت» بسبب الكشف على الكسوة وازحم الناس زيادة على عادتهم فى رمضان فلما حضر ونزل عن فرسه عن الباب وأراد العبور للمسجد، رأى ذلك الازدحام فهاب الدخول وخاف العبور وسأل من معه عن سبب هذا الازدحام فقالوا هذه عادة الناس فى نهار رمضان يزدحمون دائما على هذه الصورة فى المسجد ولو حصل منكم تنبيه كنا اخرجناهم قبل حضوركم فركب فرسه وكر راجعا وانصرف.

وفى العام التالى ١٢١٦ هـ كانت الأوضاع العامة لاتسمح بزية مظاهر احتفالية خاصة مع تصاعد المقاومة الشعبية لجيش الاحتلال الفرنسى، فيقول الجبرتى: «لم يعمل فيه شنك الرؤيا على العادة، خوفا من عربدة العساكر، والمحتسب كان غائبا، فركب كتخداه بدلا عنه بمكبه فقط، ولم يركب معه مشايخ الحرف، فذهب إلى المحكمة، وثبت الهلال ونودى بالصوم من الغد!

ومع بداية القرن العشرين فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى انتقل اثبات رؤية الهلال إلى المحكمة الشرعية بباب الخلق.. حيث كانت مواكب الرؤيا تخرج من محافظة مصر «القاهرة» إلى المحكمة الشرعية.. موكب لأرباب الحرف على عربات مزدانة بالزهور والاوراق الملونة وموكب الطرق الصوفية بالشارات والرايات والبيارق وفرق رمزية من الجيش والبوليس بموسيقاها المميزة، وكانت هذه المواكب تمر بقصر البكرى بالخرنفش، حيث نقيب السادة الأشراف وامراء الدولة والأعيان يستقبلون وفود المهنئين وتوزع المرطبات ويتبادل الجميع التهانى بينما مدافع القلعة والعباسية تدوى وتطلق الالعاب النارية وتضاء الأسواق والشوارع وجميع القباب والمآذن.. يوم كانت المآذن تعلو البيوت.







ذكريات رمضانية:

مع نجوم مدرسة تلاوة القرآن المصرية

شهر
رمضان.. هو احتفالية دينية
قومية، تشمل جميع البلاد العربية
والاسلامية، فالمساجد تغمرها بهجة الأنوار، عامرة
بجموع المصلين المتعبدين يبتغون فضلا من الله
ورضوانا.. وشهر رمضان، الذى خصه سبحانه بنزول
القرآن الكريم، خصه أيضا نبينا - صلى الله عليه وسلم -
بالتوقير والاجلال، مقرنا التعبد بتلاوة كتاب الله من
قيام الليل والاعتكاف.

ومنذ عصر صور الاسلام، عصر «بلال» المؤذن الذى وصفه الرسول بأنه «أندى صوتا» وقوله لأبى موسى الأشعرى: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارا من مزامير داود».. دخل تاريخ الاسلام، المئات من المؤذنين والمقرئين اصحاب الاصوات الندية الجميلة التى أوصلت كلمات الله إلى مختلف بقاع الأرض وقد ارتفع شأن فن التلاوة مع ارتفاع شأن الدولة الاسلامية ووضعت المصنفات فى فنون القراءات العشر، ثم عاد هذا الفن إلى الاضمحلال، وتألق مع مطلع هذا القرن، بصوت الشيخ أحمد ندا الذى أحدث ثورة فى دولة التلاوة.

ابتكر الشيخ احمد ندا اسلوبا جديدا فى القراءة مع قوة وجمال الصوت، الذى كان يدخل سريعا إلى القلوب فيأسرها ويستولى على مشاعر المستمعين، وبلغت شهرته كل مديريات مصر فى ذلك العصر، وأحيا ليالى رمضان فى قصور الباشوات والامراء ودور العمد والأعيان، وبدأ أجره بخمسة جنيهات ـ التى كانت مبلغا ضخما بمقاييس ذلك الزمان ـ حتى وصل إلى مائة جنيه عن الليلة الواحدة!. وامتلك عربة تجرها أربعة خيول مثل عليه القوم. وقصراً يؤمه نجوم السياسة والأدب والصحافة.

ويقول الشيخ عبدالعزيز البشرى الأديب وأحد ظرفاء مصر عن الشيخ احمد ندا: «كان يقرأ فلا يلتزم لونا واحدا. وإنما يتجول بين فنون من التنغيم ليلتمس اندر جمالياتها واصعبها اداء، ومن ثم اكتسب شهرة فى اصطياد المبتكرات وفى الابداع بالتجديد غير المسبوق، وتتلمذ عليه الكثيرون، حتى استحق ان يتصدر ريادة المقرئين فى ذلك العصر».

والفطرة المصرية وجدت فى سماحة الاسلام.. ما يدعم اسلوبا مصريا خالصا فى تلاوة وتنغيم القرآن الكريم، حتى تشكلت مدرسة متميزة فى هذا الفن، لها نجومها واعلامها وفى فترة ما قبل انتشار الاذاعة. كانت حناجر المقرئين تتميز بالقوة الفياضة فى التلاوة بالمساجد والسرادقات وبيوتات العائلات الكريمة.. وبالاضافة إلى الشيخ احمد ندا عميد القراء، كان هناك ايضا رواد آخرين، منهم: الشيخ بدار مقرىء السلطان العثمانى، والشيخ

محمود القيسونى مؤذن ومقرىء السراى، والشيخ حسين الصواف والشيخ حنفى بدعى والشيخ محمود صبح والشيخ يوسف المنيلاوى الذى اتجه ايضا للتلحين والغناء.

نجم فن التواشيح والتلاوة، المؤذن والمنشد والمطرب الشيخ «على محمود» مقرىء جامع مولانا الامام الحسين، والذى درس فنون الموسيقى الشرقية، ووضع عشرات الالحان لقصائد دينية، وأسلوبه الفريد ـ مع بطانته ـ فى السيرة النبوية ومدح النبى والانشاد، فى ليالى رمضان والمناسبات الدينية، جعل منه أسطورة لن تتكرر فى هذا الفن.

غادر الشيخ على محمود حى العباسية الذى ولد به، ليقطن بشارع الباب الأخضر بجوار ضريح سيد الشهداء التماسا لبركته وكان يصعد إلى المنارة القديمة للمسجد ليؤذن للصلوات الخمس، ويسبق اذان الفجر بتسابيح توقف كل السائرين حول مسجد الحسين، وكان عندما يقبل على ساحة الميدان «يخلع نعله» تأدبا ويسير حافيا إجلالا لسبط رسول الله.

واشتهر الشيخ محمد الصيفى أستاذ علم القراءات الذى أدخل فنونا جديدة على قواعد التلاوة، وتتلمذ عليه الكثيرون، وخلف الشيخ على محمود فى القراءة بمسجد الحسين ومنحه عدد من الرؤساء والملوك نياشين وأوسمة تقديرا لفنه.

أما الشيخ سعيد محمد نور السودانى، مقرىء جامع الخازنداره الشهير بشبرا فكان صاحب اسلوب متفرد فى التلاوة، مغلف بالشجن العميق، وصفه الكاتب محمود السعدنى: «بأنه كان يتلو بأسلوب كأغانى الزنوج فى الغابات».. روى عنه معاصروه الكثير وحكى لى والدى ـ رحمه الله ـ وكان من مريدى هذا الشيخ: ان سائقى ترام شارع شبرا كانوا يتوقفون عند سماعهم لصوت الشيخ سعيد واستجابة للركاب أيضا، كما كان مصرا على ألا يقرأ فى ستوديوهات الاذاعة أو تسجل له، وكم كانت فرحة والدى، عندما اهديته الشريط الأوحد ـ سورة مريم ـ بصوت الشيخ، سجل له دون علمه.

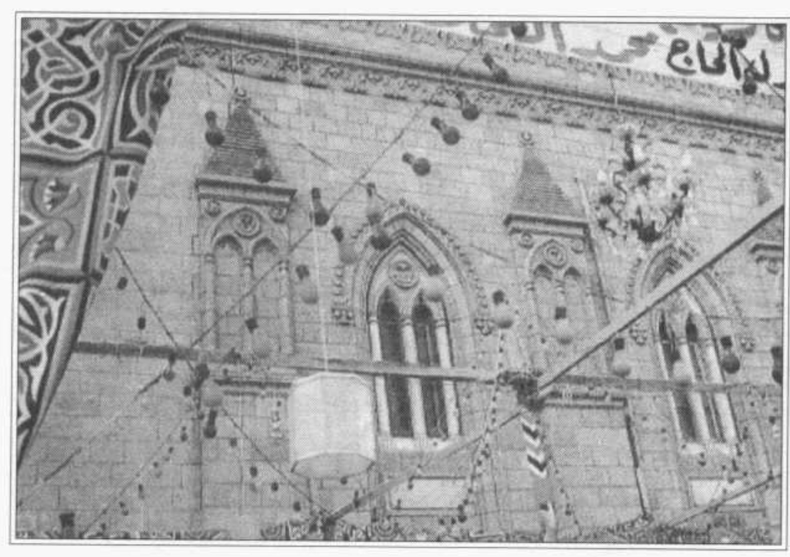
الشيخ «محمد رفعت».. الذى وصف بأن «دموع قلبه كانت تجرى فى نبرات صوته» والذى يفسر القرآن بتلاوته الفريدة، بما كان يملكه من خشوع وفهم وتجسيد صوتى للمعانى وحلاوة وطلاوة ورقة احساس ونقاء حنجرته، فيحلق بالقلوب والوجدان إلى آفاق الكون، وإلى عالم طاهر نقى ليس من عالمنا.

فى أحد حواراته بالتليفزيون، سئل الشيخ متولى الشعراوى عن رأيه فى مشاهير القراء، فقال: «إذا أردت أحكام التلاوة فالشيخ محمود الحصرى، وإذا أردت حلاوة الصوت فالشيخ عبدالباسط عبدالصمد، واذا أردت النفس الطويل مع العذوبة فالشيخ مصطفى اسماعيل.. واذا أردت هؤلاء جميعا فالشيخ محمد رفعت»

ولقد أصبح صوت الشيخ رفعت رمزا لهذا الشهر الكريم، وعلى مدى مدار العام، عندما نستمع إلى تلاوته ننتقل بأرواحنا إلى أجواء رمضان، وأننا فى انتظار انطلاق مدفع الافطار! والشيخ محمد رفعت هو أول من افتتح بصوته الاذاعة المصرية عام ١٩٣٤، وعلى امتداد الوطن العربى، كان صوت الشيخ - ومازال - يأخذ بألباب الملايين، حاملا إليهم نفحات من رضوان الله ورحمته.

وقد عشق صوته كثير من غير المسلمين، ومن الطريف ان الفنان الراحل نجيب الريحانى كان يستمع إليه حتى يبكى، بين الحشود التى كانت تجتمع لسماعه بمسجد الأمير مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز، فإذا أطال الشيخ، اتصل بالمسرح يطلب تأجيل رفع الستار حتى ينتهى من تلاوته! كما كان «مكرم عبيد باشا» صديقا للشيخ، وتعلم منه تلاوة القرآن وكان يتباهى بأنه تعلم على صوت الشيخ رفعت، وكان يزين خطبه البليغة الشهيرة بآيات من الذكر الحكيم.

وكان الفنان عبدالوهاب محبا للشيخ رفعت، ومن شهود مجالسه، روى فى حديث اذاعى ان الشيخ رفعت كان من الذكاء والظرف وسرعة البديهة.. وذات مرة دعانى إلى بيته بحى البغالة لأسهر معه، وغنى بعض القصائد بصوته







الساحر ويبهر الجميع وهو يقلد أصوات الباعة فى نداءاتهم.. يوم كان البائع يغازل بضاعته! وكان الشيخ رفعت فى هذه المجالس الخاصة، عندما يشرع فى التلاوة، يجلس على مقعد عاد أو دكة وتحت اقدامه يجلس عبدالوهاب ينصت فى خشوع تام إلى قيثارة السماء!

كان الشيخ رفعت أسوة حسنة لقارىء القرآن الكريم، خلقه القرآن، تأنس إليه القلوب. وكان الترام يمر بشارع درب الجماميز أمام جامع فاضل باشا «الذى اشتهر بين عامة الناس بجامع الشيخ رفعت» وكان سائقو الترام ـ ومعظمهم كانوا من الأقباط ـ يتوقفون وتتوقف حركة الترام بالشارع، من أجل ان ترقى أرواحهم لحظات إلى ملكوت السماء مع صوت شيخنا الجليل.

فى مارس عام ١٩٣٨، قدم عدد من المقرئين ـ حسدا من انفسهم ـ شكوى للاذاعة يطلبون فيها مساواتهم فى الأجر بالشيخ رفعت، كما طلبوا أيضا عدم تقليبه وحده بـ: «الاستاذ» وكانت المفاجأة ـ التى تدل على سماحة الشيخ وعمله بالقرآن ـ أن أيد هؤلاء المشايخ فى مطلبهم.. وأصر على تنفيذه، ورفضت الاذاعة وتمسك الشيخ وكانت القطيعة، ويحرم الملايين من سماع صوت قيثارة السماء.. وتنهال آلاف الرسائل التى تطالب الاذاعة بعودة الشيخ رفعت ومن العجيب: أن كثير من هذه الرسائل كان من الأخوة الأقباط.

ذات مرة قرأ الشيخ من سورة القصص الآية «فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا» فوقف عند قوله تعالى تمشى، ثم بدأ بقوله على استحياء قالت، فظن بعض السامعين من دارسى علم القراءات ان الشيخ قد اخطأ، ورجاه أن يصل، بافتسم الشيخ وواصل التلاوة إلى أن انتهى، ثم قال: أرى أنها قالت على استحياء، ولا أرى ما فهمت أنت أنها تمشى على استحياء، لأن الحياء فى القول ألزم منه فى المشى وكان ردا طريفا يدل على سعة فهم الشيخ وادراكه لمعانى القرآن العظيم.

ومن المدهش، ان شيخنا بالرغم من ثقافته المحدودة، كان يحتفظ بقدر هائل من اسطوانات بيتهوفن وباجنينى وليست وموزار، وقد وجدت كلها فى بيته

عقب وفاته، وليس ذلك بعجيب، فالموسيقى لغة عالمية يدرك منها كل انسان على قدر استعداده وميوله وكان شيخنا مغرما بالعزف على العود واداء القصائد الشهيرة.. كانت روح الفنان تغمر حياته، ولايقيم للمادة وزنا، معتزا بنفسه وبمظهره، كريما وفيا، وكانت وزارة الأوقاف قد عرضت نقله إلى أحد المساجد الشهيرة بالقاهرة يختاره بنفسه، لكنه أبى ان يفارق مسجد فاضل باشا الذى ألفه وألف ناسه، وكان محبوه يفترشون الشوارع المحيطة بالمسجد كى يستمتعوا بصوت الشيخ الذى مس شغاف قلوبهم.

وتتردد فى سمعى كلمات شاعرنا الجميل الراحل «فؤاد حداد» عن الشيخ رفعت، حيث يقول:

أخضر على طول المدد أخضر
ياطاهر الاحضان..
أخضر كانى فى النهار الدايم
منى السما المرفوعة فوق المداين
منى السما المرفوعة فوق الغيطان
أخضر كانى فى ندا رمضان
بعيون بريئة ما دخلها شيطان
والسمع والطاعة بضمير واحد
وراحة الحق ودفء الأوطان
والانسانية نسيم..
على منى صوت الشيخ رفعت
بيقرأ فى الذكر الحكيم

فى عصر اليوم التاسع من مايو عام ١٩٥٠ نعى «عبدالوهاب يوسف» أحد رواد الاذاعة، الشيخ رفعت إلى شعب مصر ولم يستطع ان يملك زمام نفسه

وهو امـام الميكروفـون فـانهـار باكيـا، فـأسـرع «أنور المشـرى» ليكمل: «أيهـا المسلمـون، فـقـدنا اليـوم أعظم صـوت رتل القـرآن الكريم فـقـدنا اليـوم أحلى الأصوات العربية، فقدنا اليوم صاحب الحنجرة الفريدة التى امتلكت قدرة فائقة على ايصـال أعـذب وأنقى الاصـوات إلى الناس.. إنه القـارىء الشـيخ مـحـمـد رفعت وتبكيه قلوب المصريين والمسلمين فى كل أرجاء العالم الاسلامى».

لقد أحب الناس شيخنا الجليل، وكان هذا الحب نابعا من محبة واكرام الله له. ولله در شيخ الازهر الأسبق «مصطفى المراغى» حين قال عنه: هو منحة من الاقدار حين تهادن وتجود، وبل وتكريم منها للانسـانيـة، فـهـو خـيـر من رتل القرآن وخير من تلاه.. إلى ان يشاء الله.

عمنا الشيخ مصطفى إسماعيل

أبرع وأشهر قارىء للقرآن بعد الشيخ محمد رفعت.. كان جامعة وحده فى فن التلاوة وسار على منهجه كثير من المقرئين حتى يومنا هذا وحسبما روى الشيخ مصطفى فى حديث له باذاعة القرآن الكريم، ان الذى اكتشفه ـ بعد ان حـقق شـهـرة فى قـرى ومـراكـز مـحـافظة الـغـربيـة ـ هو الشـيـخ عـبـدالفـتـاح الشعشاعى، فأتى به من قرية «ميت غزال» التى ولد بها عام ١٩٠٥، إلى سراى عـابدين ليـحـيى ليـالى شـهـر رمـضـان عـام ١٩٤٣، ثم من سـراى رأس التين بالاسكندرية عام ١٩٤٥، وكـانت بداية شـهـرته التى أسـهم فـيـهـا أيضـا ـ على المستوى الشعبى ـ إحياء ليالى رمضان من مسـجد السيدة الطاهرة زينب ومسجد الامام الحسين، وأصبح قارئا للجامع الأزهر حتى وفاته عام ١٩٧٨.

ويقول المؤرخ كمال النجمى: «لقد كان الشيخ مصطفى اسماعيل يمتلك صوتا فذا واسع المساحة، وكانت له حصيلة من العلم بالمقامات لامثيل لها عند أحد من المقـرئين» فكان يبـرز جـمـال الآيات واعـجـازهـا، ويتنقل بين المقـامـات الأصليـة والفرعية ببراعة فـائقة مع التزام بأصـول علم القراءات ومعانى الآيات.. وكانت تلاوته تنسق هذه الألوان المقامية فى أسلوب مكنه من الاستحواذ على الاسماع.

وكان محبو الشيخ مصطفى بالملايين، ومنذ عصر الملكية، تحرص الحكومة المصرية ـ كتقليد سنوى ـ على ايفاد بعثات القراء إلى عواصم الدول الاسلامية وبترشيح من مشيخة رابطة القراء، لإحياء ليالى رمضان وامتاع المسلمين بفن رواد مدرسة الترتيل المصرية، وكان الشيخ مصطفى اسماعيل على رأسهم، فطاف بعواصم البلاد العربية والاسلامية، وجلجل صوته فى أشهر مساجدها.. وقرأ فى ستاد الباكستان حتى يمكن استيعاب الجماهير التى احتشدت لسماعه. والمركز الاسلامى فى باريس وفى لندن والولايات المتحدة الأمريكية.. وحظى بتقدير الملوك والرؤساء وكم احيا ليال فى رمضان بحضور الملك فاروق والرئيس عبدالناصر واصطحبه الرئيس السادات فى زيارته للقدس وتلا من ايات الله فى صلاة عيد الأضحى فى المسجد الاقصى وتهادى صوته عبر الأقمار الصناعية، ليثير شجنا كامنا وحزنا على الأقصى الأسير.

وكان أول قارىء للقرآن ينال وسام العلوم والفنون. فى الاحتفال بعيد العلم عام ١٩٦٥، ومن بين من كرمهم عبدالناصر فى هذا الاحتفال: د.طه حسين، فكرى اباظة، أم كلثوم وعبدالوهاب.. لقد كان الشيخ مصطفى اسماعيل ـ رحمه الله ـ عطاء ربانيا وهبة من السماء لن تتكرر.

الشيخ عبدالباسط عبدالصمد

طبقت شهرته الآفاق ومن أرمنت إلى مختلف مدن صعيد مصر، إلى مبنى الاذاعة عام ١٩٥٠ وطارت شهرته إلى الوطن العربى كله فى العام التالى مباشرة، كان مقرىء مسجد الامام الشافعى حتى رحيله.. وأحيا ليالى رمضان فى الحرم المكى والمسجد الأموى وفى مساجد حلب واللاذقية وطرطوس وبيروت والمملكة الاردنية وفى مختلف عواصم العالم الاسلامى، وقرأ على الجاليات الاسلامية فى أوروبا وأمريكا وجنوب افريقيا ومرتين فى المسجد الاقصى، وعن مشاعره خلال تلاوته بالأقصى قال: «وكأننى كنت فى الجنة»..

كانت الليلة الثانية عام ١٩٦٢ احياء لليلة القدر، وبالاتفاق مع وزير الاعلام الاردنى، انضمت اذاعات معظم الدول العربية والاسلامية لنقل ذلك الحفل القرآنى.. وأول تسجيل اذاعى له كان باذاعة جدة، وأول مناسبة دينية يحييها بالقاهرة كانت فى الليلة الختامية لمولد السيدة زينب، وكان يقطن فى مواجهة المسجد التماسا لبركة عقيلة بنى هاشم التى انطلقت شهرته من مسجدها.

من ذكريات ليلة القدر

واذكر فى ليلة القدر، عام ١٩٧٤ فى احتفال وزارة الاوقاف بهذه الليلة التى احياها الشيخ طه الفشنى وبطانته بروائع انشاده ومدحه للرسول الكريم بصوته الرقيق الحنون وامتلاكه لكل «فنون الصنعة» وموهبة فذه فاستولى على ألباب الناس. ثم أبدع الشيخ مصطفى اسماعيل، فأخذ بمجامع القلوب، وهو يتلو من سورتى النجم والقمر وعقب الانتهاء من تلاوته، أخذ يدعو لمشاهير القراء الراحلين الذين تتلمذ عليهم وقراءة الفاتحة على ارواحهم، ثم الدعاء لعامة المسلمين جميعا.. وبمجرد ان هم بالقيام هجم عليه سيل من المحبين، يقبلون وجنتيه ويده.. وبصعوبة بالغة استطاع شيخنا ان يتخلص من مظاهر الحب التى أحاطت به.

وفى ليلة أخرى، وكان الشيخ محمود على البنا مقرىء جامع السيد البدوى، قبل ان يخلف الشيخ محمود خليل الحصرى - رئيس رابطة القراء - فى التلاوة بمسجد الامام الحسين واذكر ان الشيخ البنا وهو يمر بين الصفوف، بجسده الفارع الممتلىء فى مهابة ووجاهة، فى طريقه ليتخذ مجلسه المعد له، قام أحد البسطاء من العامة بجوارى، وعانق الشيخ وقبله، ثم جلس ليهمس لى قائلا: «ما شاء الله وشه منور من أكل الحمام والوز»!!.. لم يدرك الرجل أن هذا هو نور القرآن الذى يحمله الشيخ فى صدره.

ومن الذكرى ايضا، فى الاحتفال بليلة القدر عام ١٩٧٩. وكان القارىء الشيخ محمود صديق المنشاوى، ومسجد الامام الحسين ليس فيه موضع لقدم،

وكان مزاج الشيخ عاليا . فصال وجال وأبدع من سورة «يوسف» فجعل الناس فى حالة من النشوى والصفاء، ولم يقفه الا اقتراب موعد أذن الفجر، وكانت ليلة لاتنسى أبدع فيها ايضا الشيخ نصر الدين طوبار، وفيها أعاد الشيخ محمود ذكرى مجد شقيقه العظيم الشيخ محمد صديق المنشاوى بأسلوبه المتميز وكان قارئا بمسجد الزمالك، والدبلوماسيون العرب كانوا أشد حرصا على الاستماع إليه فى هذا المسجد وكما أبدع فى أحياه من ليالى بما المشهد الحسينى وزار وقرأ بالحرمين الشريفين، وقرأ فى مساجد بغداد ودمشق والقدس وتوفى فى ريعان شبابه وكان والدهما الشيخ صديق المنشاوى أشهر قارىء بصعيد مصر والذى رفض أن يلتحق بالاذاعة مفضلا ان ينال هذه الفرصة ابنه الشيخ محمد ـ وكان هدية من الرحمن ـ وهم جميعا من أسرة وهبهم الله من فضله الكثير، فحافظوا على الأمانة وأدوا رسالتهم بما نأمل أن يجزيهم الله عنا خير الجزاء.

والشيخ نصر الدين طوبار كان أحد نجوم شهر رمضان، وكان ـ رحمه الله ـ يفضل البقاء فى القاهرة فى هذا الشهر الكريم وقد لايعرف الكثير أنه كان قارئا للقرآن بمسجد الخازنداره بشبرا حيث كان المسجد يكتظ بجموع المصلين الذين احتشدوا للاستمتاع بصوت الشيخ نصر والذى طغت شهرته كمنشد فى ليالى رمضان بمسجد مولانا الحسين.

ومن العلامات المميزة لشهر رمضان ـ فى العقد السادس والسابع من هذا القرن ـ كان صوت الشيخ «سيد النقشبندى» القادم من رحاب القطب السيد البدوى بطنطا، صوت ملائكى قوى مميز، عامر بالايمان وحب الله ورسوله، ينساب فى كل بيت من خلال اجهزة الراديو، فيملأ القلوب خشية وجلالاً.

وبالطبع لايمكننى ان أغفل الراحل «عبدالفتاح الشعشاعى» شيخ المقارىء المصرية، ومقرىء السراى ومسجد السيدة زينب وخلفه ولده الشيخ ابراهيم الشعشاعى.. أيضا صاحب الصوت والاسلوب المتميز الشيخ عبدالعظم زاهر واحياؤه لليالى رمضان ما بين مسجد الحسين والسيدة زينب وقد وهب الشيخ

زاهر حياته للقرآن، فأفاض الله عليه من نعمه الكثير، وكان مولده فى فبراير ١٩٠٤ بقرية «مجول» بالقليوبية، وقبل ان يبلغ العاشرة من عمره، كان قد حفظ القرآن، ثم أصبح على دراية بعلم القراءات وقدمه الشيخ على محمود للاذاعة عام ١٩٣٦ وطبقت شهرته الآفاق، ويصبح قارىء السور بمسجد محمد على باشا بالقلعة ثم قارئا بمسجد صلاح الدين بالمنيل حتى وفاته عام ١٩٦٠ وقد أحيا بعض من ليالى رمضان فى المملكة السعودية والاردن واليمن حيث كان لايطيق فكره فراق القاهرة سوى لأيام محدودة ويظل الشيخ فى قلوب محبية حالة فريدة بين نجوم دولة التلاوة.

والشيخ كامل يوسف البهتيمى: صاحب الصوت الملائكى المتميز، والذى توفى عام ١٩٦٩ عن عمر لايتجاوز ٤٢ عاما، وقد عاش طفولته بقرية «بهتيم» ثم جاء إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة عثمان باشا ماهر بالقلعة ثم التحق بالازهر الشريف، وكان عاشقا لصوت الشيخ رفعت، والتحق بالاذاعة عام ١٩٤٨ وكان أول أجر له خمسون قرشا.. وفى عام ١٩٥٥ أحيا ليالى رمضان من محطة الشرق الادنى وتقاضى اجرا ٥٠٠ جنيها، كما أحيا ليالى رمضان فى لندن ودمشق ودلهى وبعض الدول الآسيوية، وكانت وفاته فى يوم مشهود، وقد ضم سرادق العزاء نحو مائة مقرىء من مصر والعالم الاسلامى تقدمهم الشيخ الحصرى شيخ المقرئين وظلوا يتلون القرآن لأكثر من خمسة ساعات.

والشيخ منصور الشامى الدمنهورى: مقرىء المسجد الأقصى والاذاعة المصرية والشيخ عبدالعزيز على فرج.. الذى كان له مريدون ومحبون يهرعون إليه بمسجد السيدة عقيلة بنى هاشم، وكان رحمه الله يفضل الجلوس إلى الأرض وهو يتلو قرآن الفجر.. وصاحب الصوت الندى الشيخ على حجاج السويسى الذى كان يقرأ بدار جدى بشبرا فى الاربعينيات مقابل خمسة عشر قرشا طوال الشهر.. وقد سافر خلال رمضان ٢٦ مرة والشيخ أبوالعينين شعيشع نقيب القراء حاليا، مقرىء السراى الملكية وأول قارىء للقرآن يسافر إلى الخارج وكانت الرحلة إلى المسجد الاقصى عام ١٩٤٠ بعدها طاف فى رمضان بالعديد من الدول العربية والاسلامية وبعض دول أوروبا والولايات

الأمريكية وهو حاليا مقرىء المشهد الزينبى وقد اختير العام الماضى رئيسا للجنة العليا لمسابقة القرآن الكريم العالمية فى طهران.

أما صاحب الأداء المنفرد فى التجويد والتراتيل، الذى تطمئن له القلوب فتخشع لذكر الله «الشيخ محمود خليل الحصرى».. أول من سجل المصحف المرتل للاذاعة سنة ١٩٦٣ بروايات القراءات السبع، وقد ولد الشيخ عام ١٩١٧ بقرية «شبرا النملة» بالقرب من طنطا وبها حفظ القرآن وقرأ بالاذاعة لأول مرة عام ١٩٤٢، زار معظم البلاد الاسلامية والاوروبيةوكان المقرىء الوحيد الذى تلا القرآن فى الكونجرس الأمريكى فى عهد الرئيس جيمى كارتر، عين شيخا للمقارىء المصرية ورئيسا لاتحاد قراء العالم الاسلامى عام ١٩٦٠ ومستشارا بالمجلس الاعلى للشئون الاسلامية ووكيلا للجنة تصحيح المصاحف ومن مؤلفاته: «مع القرآن» و«أحكام القرآن والترتيل» و«رحلاتى فى الاسلام».. وانتقل إلى رحمة الله عام ١٩٨٠.

ايضا لايمكننى ان أغفل صاحب الصوت القوى الخاشع شديد التأثير الشيخ محمود عبدالحكم.. الذى ظل قارئا للسورة بمسجد السيدة نفيسة ـ رضى الله عنها ـ لأكثر من ثلاثين عاما حتى رحل عن دنيانا عام ١٩٨٢ وكان مولده بقرية «الكرنك» بمحافظة قنا عام ١٩١٥ وحفظ القرآن فى سن العاشرة بكتاب القرية، ثم التحق بالمعهد الازهرى الأحمدى بطنطا ومنه إلى جامعة الازهر وقد انضم إلى جيل الرواد بالاذاعة عام ١٩٣٧ وأسهم فى انشاء رابطة القراء عام ١٩٤٠ واختير أمينا للصندوق وعضوا بمشيخة المقارىء المصرية، وسجل القرآن بصوته لكثير من اذاعات الدول العربية والاسلامية خلال شهر رمضان وحتى يومنا هذا، مازال صوت الشيخ عبدالحكم يتردد فى سمعى كلما زرت مشهد السيدة نفيسة، حيث خلفه فى هذا المكان الشيخ أحمد الرزيقى».

أيضا الشيخ محمد محمود الطبلاوى.. نائب نقيب القراء، والذى حاز شهرة كبيرة فى العقدين الاخيرين، وخلف الشيخ مصطفى اسماعيل ـ عقب وفاته ـ

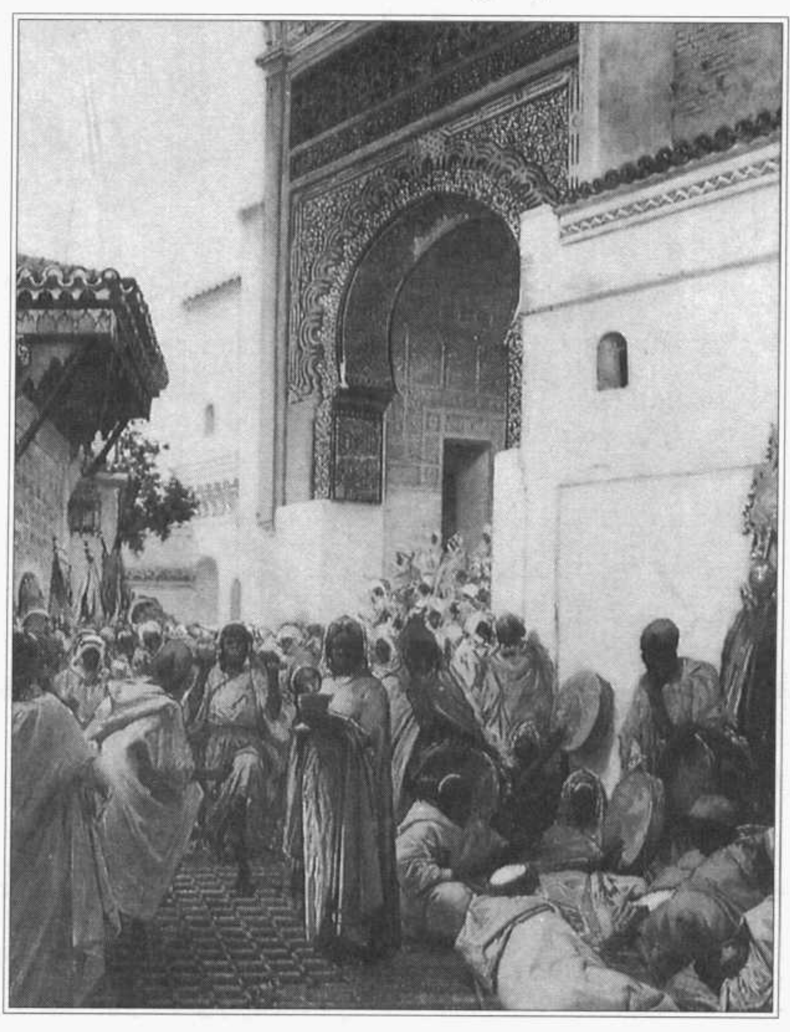
فى التلاوة بالجامع الأزهر، وقد زار ٦٦ دولة عربية واسلامية، بدأها بالقراءة فى مسجد الحسين فى عمان بالأردن عام ١٩٦٨، ويصف انطباعاته عن رمضان فى بلاد أوروبا وأمريكا: «لاتجده فى هذه الدول الا فى المساجد: التى تكتظ بالمصلين، وحيث صلاة التراويح ومجالس العلم، أما روح رمضان الحقيقية فلا تحسها إلا فى مصر وبعض الدول الاسلامية.

وتجدر الاشارة إلى ان هؤلاء المقرئين، توفد معهم بعثات من خير الدعاة، يمثلون الصورة المشرقة لجوهر الاسلام وسماحته.

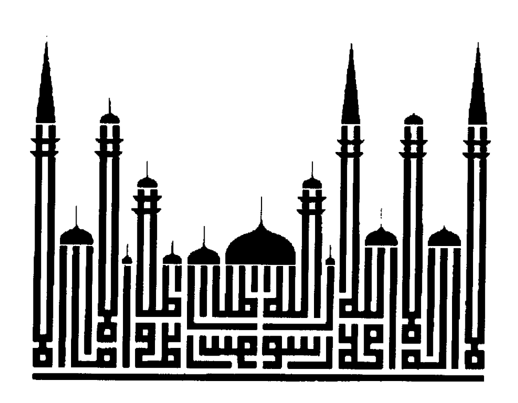
وبعد،.. كانت هذه رحلة موجزة.. مع أعلام ونجوم مدرسة الهدى والنور المصرية المتميزة الذين حملوا صوت السماء إلى كل الدنيا.



ليالى الفن والنور







رمضان.. فى الزمان الجميل

ليالى الفن والنور!

إذا
كان الاحتفاء بشهر رمضان له
دلالته الخاصة فى عقيدة المسلم، فى جميع
دول الاسلام.. فإن لهذا الشهر الكريم فى بلادنا
«خصوصية مصرية».. فكل ناس مصر - مسلمين وأقباط
- يستقبلونه ببهجة وفرحة، فرمضان لايرتبط فى أذهانهم
بالاسلام ومناسكه فحسب، بل يرتبط أيضا بعادات وتقاليد
شعبية متوارثة، ولدوا وعاشوا فى ظلالها.. وذكريات
رمضانية جميلة يسترجعونها من زوايا النسيان،
منذ عهود الطفولة والصبا.

وينفرد رمضان بخصوصية الشهر الوحيد الذى يحتفل برؤية هلاله.. كما تميزه ظواهر احتفالية كاضاءة المساجد والشوارع والحارات،، فتتألق مصر جميعها فى هالات من النور، وليالى السمر ، والمسحراتى، والياميش وقمر الدين والكنافة والقطايف والفوانيس الملونة.. وصوت الشيخ محمد رفعت.

وتذكر الأجيال الماضية صورة استقبال رمضان باطلاق المدافع، وموكب أرباب الحرف، وكل حرفة تمثلها عربة مزدانة بالزهور والفوانيس ورموز من أدوات الحرفة.. ومواكب دراويش الصوفية يحملون شاراتهم وبيارقهم وفرق الجيش والشرطة بموسيقاها المميزة، هذه المواكب التى كانت تنطلق فى جو من البهجة والفرح العام فى شوارع القاهرة حتى مبنى المحافظة أو إلى المديرية فى عواصم المحافظات.. أو بيت «البيه المأمور» فى القرى!

وتتألق القاهرة فى ليالى رمضان، وكأنها تحتفل بميلادها إلى جانب احتفاءها بشهر القرآن، وبالرغم من أن الاحتفالات بشهر رمضان اصبحت قاصرة على الاحياء الشعبية، التى تضم مزارات أهل البيت، حتى سكان الأحياء الراقية يحرصون على قضاء سهرات رمضان فى حى الحسين، حيث مقاهى الفيشاوى والمجاذيب والشاى المغربى.. وفى حى السيدة زينب أيضا ويحرص الكثير من أهل القاهرة على تناول الافطار ـ ولو لمرة واحدة خلال رمضان ـ فى حى مولانا الامام الحسين وقضاء السهرة فى احدى المقاهى الشهيرة بالحى حتى موعد السحور، يدخنون الشيشة ويشربون الشاى الأخر والأحمر.. وإذا كانت القاهرة تسهر فى الحسين والسيدة زينب، فالاسكندرية تسهر فى المنشية وسوق الخيط والابراهيمية.. وفى السنوات الأخيرة، انتشرت ظاهرة «محاولة» نقل أجواء الحياة الشعبية خلال شهر رمضان إلى فنادق الخمس نجوم.

كانت مظاهر الفنون الشعبية تتجلى فى أحياء الحسين والسيدة والقلعة.. فكان السيرك فى حى السيدة ينصب خيامه بشارع الماوردى «حيث يستعرض الأسد المصرى: عبدالحليم بك المصرى، والنمر السورى: يوسف أفندى برزه»،

وعروض السينما «المفتوحة» فى شارع السد البرانى، وكذلك عروض المسرح الشعبى والاراجوز وخيال الظل والقرداتية والحواه فى شوارع ماراسينا وزين العابدين حتى منطقة المدبح، وتروج حركة المطاعم والمقاهى ومحال الحلوى والكنافة حتى آذان الفجر.. وفى حى الحسين والمنطقة المحيطة بساحته كانت تنتشر سرادقات الفن الشعبى، كان أشهرها سرادق الفنان الأصيل «محمد الكحلاوى».. وغيره من نجوم الطرب الشعبى وفرق الانشاد الدينى ومسرح السامر أيام الراحل «زكريا الحجاوى».. كما كانت تنتشر سرادقات الفنون الشعبية بميدان القلعة وسكة المحجر وشارع السيدة عائشة.

ومن الظواهر التى اختفت من حياتنا الشعبية «شاعر الربابة».. الذى تحدثت عنه كتب الرحالة، شهد اجدادنا مجالسه، حتى بداية انتشار الراديو.. كان اصحاب المقاهى حريصون على الاتفاق مع شعراء الربابة لاحياء ليالى رمضان فى مقاهيهم.. كان الشاعر يتصدر المقهى على دكة خشبية وعلى جانبه اثنان من العازفين على الربابة، ويروى السير الشعبية كأبوزيد الهلالى والزناتى خليفة وعنتره والظاهر بيبرس.. بعضهم كان يغنى قصته، والبعض الآخر كان يضفى عليها الأداء التمثيلى كقصة الظاهر بيبرس، فإذا تحدث بلسان الاعداء يحاول ان يتكلم بلكنة أجنبية.. وإذا كان المتحدث سيدة رقق من صوته وهكذا.

ومواكب دراويش الصوفية، وصخب الطبول والدفوف المصاحبة لها، حاملين الشارات والبيارق، مكتوب عليها كلمة التوحيد ولفظ الجلالة واسماء الله الحسنى واسماء محمد والخلفاء الأربعة والأقطاب والأولياء.. والعمائم والأوشحة بالألوان: الأحمر والأسود والأخضر.. كل حسب الطريقة التى ينتمى إليها، وكان كثير من الناس ينضمون إلى هذه المواكب، وإلى حلقات الذكر. التى تزداد سخونتها مع تزايد «الوجد» وتزايد ايقاع الدفوف! ويجدر بالذكر، أن هذه المواكب ـ قبيل انتشار الكهرباء ـ كان يتقدمها فى الليل أحد الشيوخ ممسكا بفانوس من نوع خاص، عبارة عن قفص كبير مغطى بقماش أبيض، بداخله مصباح أو قنديل ملون، فكانت تنعكس على وجوه الرجال وراياتهم أضواء وأشكال جذابة تزيد من جمال الموكب وروعته.

فوانيس رمضان

أهم مظاهر الاحتفال بالشهر الكريم عند الأطفال: فوانيس رمضان.. ذات الألوان والأشكال والأحجام المختلفة.. وبالرغم من طول الزمان والفوانيس البلاستيكية، مازال الشكل التقليدى للفانوس الزجاجى الملون سحره الخاص.

وقد تباينت الروايات التاريخية حول أصل هذه العادة.. فيذهب البعض إلى أنها تعود إلى عصر الخلفاء الفاطميين، عندما حرم على النساء الخروج من بيوتهن، باستثناء ليالى رمضان وحدها، لزيارة اقاربهن، فكانت السيدة تسير فى الطرقات يتقدمها خادم صغير يحمل فى يده فانوسا بشمعة.. وتتعاقب القرون، وخرجت النساء كيف شئن.. وبقى الفانوس فى يد الصغار كتقليد رمضان متوارث.

وفى بعض الروايات التاريخية: ان الفوانيس كانت تعلق بأعلى المآذن منذ آذان المغرب حتى موعد الامساك.. كما كانت تستخدم الفوانيس لإضاءة الطرقات والحارات فى عتمة الليل وقت صلاة التراويح وصلاة الفجر.

ويتفنن صناع الفوانيس فى ابتكار أشكال جديدة كل عام لجذب الأطفال، وتشتهر منطقة تحت الربع بهذه الصناعة الموسمية.

ويطوف الاطفال فى الأحياء الشعبية حاملين فوانيسهم الملونة، وقد حفظت الذاكرة الشعبية كثيرا من الأغانى الجميلة التى يترنمون بها.. ومنها:

وحوى يا وحوى .. إياحه
بنت السلطان .. إياحه
لابسه الفستن .. إياحه
ماسكة الفانوس .. إياحه
أحمر.. وأخضر .. إياحه
ماشيه تتمخطر .. إياحه
علشان أعرف .. إياحه
بيتهم عالى .. إياحه
وحوى ياوحوى .. إياحه

وقد تباينت الآراء حول كلمة «وحوى».. ومن الأغانى الشهيرة التى تتوارثها الأجيال، حيث تتوجه مجموعة من الاطفال إلى منزل واحد منهم.. وينشدون:

حـــــاللـوا.. يـاحـــــاللـو..

رمـــضــــان كــــريم.. يـاحــــالـو

لولا (محمد) لولا جينا .. ياللا الغفار

ولاتعــبنا رجلينا .. ياللا الغـفـــار

يحل كيسه ويدينا .. ياللا الغفار

يدينا يامـا يـدينا .. ياللا الغـفــار

يدينا مــتين ريال .. ياللا الغـفــار

نسافر بيهم بر الشام .. ياللا الغفار

نجـيب بيـهم طرابيش للجدعـان .. ياللا الغفـــــار

ومناديل للسـتــات .. ياللا الغـفــار

ادونـا الـعـــــادة .. اللـه خـليكم

لبــــه وقـــــلاده .. اللـه خـليكم

الفـــانوس طقطق .. اللـه خـليكم

والعيال ناموا.. الله خليهم.. لأهاليهم

فتمنحهم أم الطفل المنادى عليه شيئا من الحلوى أو النقود.. ويذهبون إلى منزل صديق آخر فيقولون:

أحــــمـــد قـــاعـــد ع المرتبـــة

والمرتبـــــة مـــــدهبـــــة..

وأمـــه تقـــول يا مــــرحـــبـــة..

ابن الـعـــزيزة الـغـــالـيـــة

وقد يداعبون عجوزا قائلين:

يا أم رمـــضـــــــــــــان

قـــــومـى اتســـــــحـــــرى

عـــالـفـــجــــــل الريـــــــــان

والـعـــــــيش الـطـــــــــرى

ويمرون على المقاهى والدكاكين بفرحتهم الملونة، فإذا منحهم صاحب الدكان شيئا قالوا:

الـدكـــــان ده كلـه عـــــمـــــــار

وصـــــاحـــبـــه ربنا يغنيــــــــه

وعندما ينطلق مدفع الإفطار.. ينطلقون صائحين:

يا صايم.. قوم افطر.. عالكحكة أم سكر

وينشدون أيضا:

يا رمـضـــــــان ياورق أخـضــــــــر

أيـــــامـــك زى الـــــســـــكـــــر

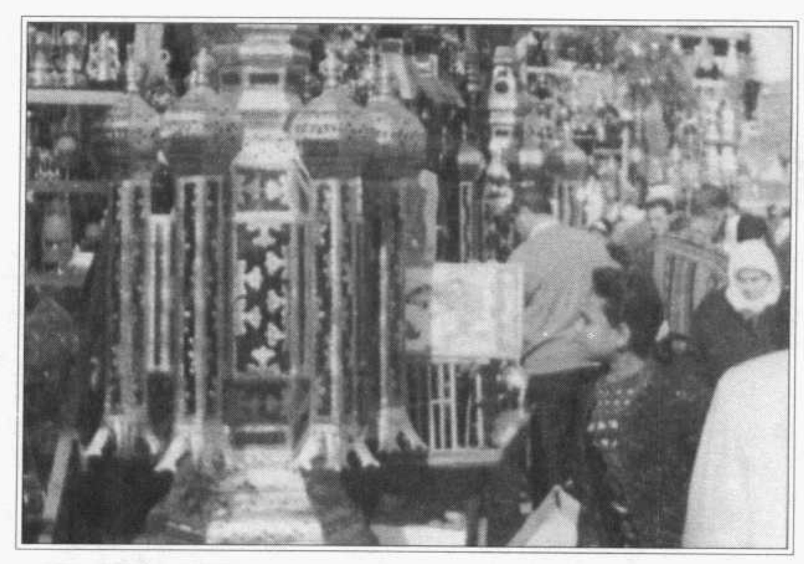
دايما بـتـــــجـــــينا مــــعـطر

صـــيـــامــــــك بيـــهـنينــــــا

وع الجــــــوامـع بيـــــــوديـنـا

رمضان.. فى الريف والصعيد

فى رمـضـان، لايسـهـر الفـلاحـون إلا فى مكانين: «المندرة» أو المقـهى... فيسهرون فى المندرة بجوار «حضرة العمدة» أو «سيدنا الشيخ».. والمندرة هى القاعة الكبيرة فى دوار العمدة الخاصة بالمناسبات.. حيث توزع أطباق الحلوى وأدوار الشاى الثقيل، يستمعون إلى أحاديث شيخ القرية، بينما يفضل البعض







ـ خاصة الشبان ـ السهر فى المقاهى حيث العاب التسلية والشاى والمعسل!

وفى صعيد مصر، كان الاثرياء يتنافسون على احضار مشاهير القراء والمنشدين، ويسارع القادرون إلى تجديد فرش الدوار، ويحدث فى كثير من قرى الصعيد ـ حتى يومنا هذا ـ ان تخرج الصبايا من البيوت حاملات الصوانى النحاسية الكبيرة عامرة بأطايب الطعام إلى «المندرة».. أو خارج البيوت، ليشارك فيها الرجال وضيوفهم وأى غريب يتصادف مروره بالقرية وقت الإفطار.

وتكتمل سعادة الاطفال بشكل خاص، حيث تتزايد فرص لعبهم خارج البيوت، فهم موقنون تماما ان كل العفاريت قد قيدت فى هذا الشهر الكريم. وكان اعتقاد الناس قديما ان رمضان ملك من الملائكة، فإذا هل هلاله، قيد العفاريت والجن فى قماقم من النحاس، حتى يرتاح منها الناس ويتحركون فى أمان طوال الشهر.

يا رمضـــــــان يا عـود كـــبريت

يامقـيـــد كل العفـــــاريت

وفى ذلك الزمان الجميل.. كان الأعيان من الباشوات والبكوات يستقدمون كبار المقرئين والمنشدين «الصييته» لإحياء ليالى رمضان فى قصورهم.. وكم أحيا كبار المقرئين والمنشدين من ليال فى قرى مصر: محمود صبح واسماعيل سكر واحمد ندا ويوسف المنيلاوى وعلى محمود وطه الفشنى ومصطفى اسماعيل وعبدالباسط عبدالصمد.

كذلك أشهر مطربى زمانه الشيخ صالح عبدالحى والست منيرة المهدية «السلطانة» وأم كلثوم فى بداية مشوارها الفنى والفنان العظيم «زكريا أحمد» الذى لم يكن يرفض ابدا احياء رمضان خارج القاهرة حتى ولو كان الأجر المعروض عليه لايكفى ثمنا لتذكرة السكة الحديد.. فقد كان يرى ان مهمة الفنان هى اسعاد الناس فى أى وقت وفى أى مكان.

كمـا كـانت تخـصص ليـال لفـرق الانشـاد الدينى وحلقـات الذكـر فكانت «الحضرة» تجمع الاحباب عقب صـلاة التراويح تبدأ هادئة متصـدرا حلقتـهـا «القوال» وهو أجملهم صـوتا .. ثم تتصاعد حرارة الذكر وتنسـجم الحضـرة مع ترديد اسم جديد من اسماء الله، تتخلـها لحظات يلتقطون فيها انفاسـهم بتناول اقداح الشاى أو القرفة. وكانت فرصة رائعة لابناء الريف والصـعيد لرؤية هؤلاء النجوم والاستمتاع بفنهم ليال «لاتحسب من العمر».

وكان الصـيـيته ومـعهم «البطانة» و«السـنيدة» يقيمـون اقامة كاملة بقصـر أو دوار الداعى، الذى كان ينتظرهم ـ أو من يمثله ـ بالركايب خارج مـحطة السكة الحديد تصـحبهم «زفة» من أهل القرية.

الكنافة..والقطايف

من مظاهر رمـضـان الرئيـسـيـة.. فـلا يخلو بيت من الكنافـة والقطايف فى رمضان ومنذ قديم الزمان، تتفنن الأسر المصرية ومحال الحلوى فى صنعهما.. وقبيل ثبوت رؤية الهلال بعدة أيام وينتشر بناء الأفران الخاصـة بصنع الكناف ـ أصبحت معظمها اليوم «آلية»!

وكـانت ربات البـيـوت يحـرصـن على اهداء صـوانى الكنافـة والقطايف من صنع أيديهم، وقد بلغ من شـهـرتهـمـا ان المؤرخ والعـالم الشـهـير «جـلال الدين السـيـوطى» وضـع كـتـابا طريفـا فـيـهـمـا بعنوان «منهل اللطائف فى الكنافـة والقطايف»!

وتسابق الشعراء فى مدحهما، فيقول الشاعر أبوالحسن الجزار:

سـقى الله اكناف الكنافـة بـالقطر
وجـاد عليـهـا سكر دائم الدر
وتبـا لأوقـات المخلل إنهـا تمر
بلا نفع.. وتحـسب من عـمـرى

وفى خفة روح مصرية، يقول:

تالله ما لثم المراشف.
كلا ولاضم المعاطف
بألذ وقعا فى حشاى
من الكنافة والقطايف
ويقول سعد الدين بن عربى:
وقطايف مقرونة بكنافة
من فوقهن السكر المذرور
هاتيك تطربنى بنظم رائق
ويروقنى من هذه.. المنثور

المسحراتى

اختلف أسلوب التسحير لايقاظ النائمين، من عصر إلى عصر، ففى زمن خاتم الأنبياء كان «بلال» بصوته الجميل يتولى هذه المهمة.. وفى عصر الولاه، كان يكلف رجال يدعون الناس للسحور سيرا على الاقدام من مدينة العسكر إلى جامع عمرو.. وفى العصر الفاطمي، كان يؤذن للسحور من المنابر.. حتى ظهر «ابن نقطة» المسحراتى الخاص للسلطان الناصر محمد، كان شيخ طائفة المسحراتية فى عصره ومخترع فن «القومه» الذى لم يحفظ لنا التاريخ إلا نماذج قليلة منه، وهى من أشكال التسابيح والابتهالات، دون اشارة إلى مضمون اجتماعى أو ثقافى.

ثم راح المسحراتية يتفننون فى الاداء واستخلاص المعانى لحث الناس على الصيام والقيام وطلب المغفرة وانشاد قصص المعجزات توزيع «التحايا» وكان لكل حى المسحراتى الخاص به وفى الاسبوع الأخير من شعبان، يطوف على بيوت الحى، ليكتب اسماء من استجد من الاطفال والسكان.

ولما كان عمل المسحراتى موسميا - مرتبط بشهر رمضان - فقد كان الغالب ان يكون المسحراتى متطوعا من ابناء الحى، لايبتغى سوى مرضاة الله، بعضهم كانوا من خدم المساجد والباعة المتجولين.. وقد لايمتلك المسحراتى عذوبة الصوت، ولكنه كان بالتأكيد فى الزمن الجميل: شخصية فنية يتمتع صوته بالشجن، ويفيض بالبهجة، ينظم معان جميلة فى ألفاظ بسيطة جميلة، يحيى بها أهل كل بيت، كلمات تلقائية نابعة من الوجدان الشعبى، صادرة على سجيتها من القلب:

ياسى عبدالرحمن بك

يابن الكرم والجود

ياللى يمر عليك رمضان.. بالفرح ويعود

وريحتك الحلوة فايحة زى الورد والعود

والمسحراتى الذى وصفه الرحالة المستشرق البريطانى «ادوارد الوجدان» عام ١٨٣٥ يختلف بلا شك عن المسحراتى اليوم، باختلاف سمات العصر.. وكان المسحراتى يطوف بالبيوت ومعه غلام يحمل له فانوس لينير له الطريق ويمسك المسحراتى بيده اليسرى طبله «بازه» وبيده اليمنى جلدة يضرب بها على الطلبة، مرددا الأغانى و«التحايا» لأصحاب الدور واطفالهم ولايذكر اسماء النساء مطلقا ويسمح له بالنداء على البنات الصغيرات حيث يقول على سبيل المثال:

عبله ست العرايس، مانساش اسمها

ياللى المشجر.. والحرير لبسها

أو يقول:

ياست نادية.. يا حبيبة الصباح

يا عقد لولى.. فوق صدور الملاح

يامسك تركى.. أينما هب فاح

على جبل عرفات.. يجمع الله شملها

فى جاه نبى مرسل عليه السلام

أحـــيــــاكم المولى إلى كل عـــــام

وكل عام وانتو الجميع.. طيبين.

وكان الاولاد والبنات ينزلون من بيوتهم، فيمنحون المسحراتى نظير هذه «التحايا» بعض من الملبس أو المكسرات «النقل» أو النقود.. ومن هذه التحايا أيضا:

فـــؤاد أفندى، الله يزيدك كـــرم

تشاهد الكعــبــة وباب الحــرم

وينصـــــرك ربى على من ظلم

أو

يا سى كـــريم يارب خليك لنا

والسنة الجـــاية تكون على منى

أو ياسى أحمد ماتنساش اسمه

لبس الباطلو.. والجوخ كسمة

ويمضى ينقر على طبلته، وقد يحمل عصا يخبط بها على كل باب، صائحا باسماء أصحاب هذه البيوت: يا حاج محمد.. يامعلم خليل.. ياسى رضوان.. اصحى وصلى على النبى. السحور..

قومى يام محمد وصحى جوزك بلاش كسل

وانت ياسى فـــؤاد.. هو النوم مـــالوش آخـــر؟!

اتفضل اتسحر بالهنا والشفا.. وادعى ربك بالتقى

وبالاضافة إلى «التحايا».. كان المسحراتى ينشد مديحا فى رسولنا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويفصل بين كل بيتين بأربع دقات على الطبلة، أو

يروى قصة مسجوعة فاذا كانت طويلة قسمها إلى اجزاء، عند كل بيت جزء، متبعا أسلوب التشويق ثم يدعو لصاحب البيت، وكانت القصص مرتبطة بروح شهر رمضان.. كقصة الاسراء والمعراج.. وقصصا تحتوى معجزات على للنبى واصحابه: قصة الجمل والغزالة، قصة الثعبان، حكاية ميمونة مع اليهودى، وبعض من سير الأقطاب والأولياء.. أو يروى بعض من القصص الفكاهية القصيرة تدور حول مواقف ساخرة حدثت له ولزوجته!

وتجدر الاشارة إلى أنه كانت هناك أغانى واسكتشات تردد فى الافراح عن شهر رمضان، تدل على وعى الفنان الشعبى وادراكه لمشاكل مجتمعه.. وهذه مقتطفات من اسكتش كان شائعا فى الافراح منذ نصف قرن، على شكل حوار بين امرأة هجرها زوجها فى شهر رمضان.. وبين المسحراتى.. يبدأ هكذا:

نـــنـــه هـــو.. نـــنـــه هـــو..

نـــام يـــا ابـــنـــى وارتـــاح..

بلاش عـــيـــاط قلبى اتقطع

وابوك ليـــلاتى داير صـــرمـــاح

نـــنـــه هـــو.. نـــنـــه هـــو..

ويظهر المسحراتى قائلا: ياعباد الله.. وحدوا الله

قوموا اتسحروا.. واعبدوا رب الأنام

دا اللى يصـــوم رمـــضـــان.. ياهناه..

ينام ف الجنة على ريش نعـــــام.

ياشارب ولانتش هنا.. امتى تتوب لك يوم.

وتســـيب الزنـــا

فترد الأم على المسحراتى:

جه معادك يامسحراتى.. وأنا ف

العـــلالى عـــمــــاله أهـاتى

فينشد المسحراتى:

يـاسـت هـديـة يـاوش الـهـنـا

قـــادر إلـهم يـســعـــدك ربنا

ليـــه بس دايما كل مـــا أجى هنا

مـاسـمـعش منك غـيـر كـتـر كـلام

واقف على باب بيـــتكم شـــايف

صينية محشية بالجوز والحمام

ومن بـعـيـد شـامم ريحـة ملوخـيـة

قـولى على عـقلى.. يا واد السـلام

فـتـقـول الأم مـحـدثة نفـسـهـا:

يادى الفضيحة مفيش قراقيش

ومن الفلوس والله مـــاعنديش

فتقرر أن تنادى المسحراتى وتشرح له حالها، فيصعد إليها، ويدور بينهما الحوار التالى:

المسحراتى:

مـــادام كـــده طلعت.. وريـنى

يسـعـد مـسـاك يانور عـينى

فـين الـقـطـايـف.. وريـنـى

دا نصف فـرخـــة.. تكفـــينى

فتقول الأم:

جـوزى سكرى.. وعـقله خـفـيف

وآدى النهاردة سبوع ابنى
ماجبش حاجة غير.. التناتيف

فيقرر المسحراتى ان يحتفل بسبوع المولود، ويمضى مناديا أطفال الحارة:

ياولاد حارتنا.. تعالوا هنوا جارتنا
قولوا.. وحوى ياوحوى .. إياحه
مولود وحيله .. إياحه
وأمه جميله .. إياحه
وأبوه نيله .. إياحه

التواحيش

وفى أواخر شهر رمضان، كان المسحراتى يتغنى وفى صوته مسحة من الحزن بـ «التواحيش» لقرب فراق الشهر الكريم ووداعه.. فيقول:

لا أوحش الله منك ياشهر الصيام
لا أوحش الله منك ياشهر القيام
لا أوحش الله منك ياشهر العزائم
لا أوحش الله منك ياشهر الولائم
لا أوحش الله منك ياشهر الكرم والجود

كان الفنان «عبده الحامولى» حريصا على الافطار فى حى سيدنا الحسين، ثم يتسامر مع اصدقائه فى احدى المقاهى البلدى، وعقب أذان العشاء، يصعد إلى منارة جامع مولانا الحسين وينشد من هذه التسابيح أو «التواحيش» وكانت العادة قد جرت فى ذلك الزمان، أن تؤدى من أعلى مآذن القاهرة.. فكانت الساحة الممتدة أمام الجامع والمشربيات والشرفات تحتشد بالناس،

كانت الأنوار والزينات قليلة إذا قيست بما يحدث فى زماننا، إلا أنها كانت أروع فى العين وأوقع فى القلوب لأنها كانت أعلق بالمعانى منها بالمبانى.. وتحلق الأرواح فى سماء الجلال، مستمعين بفن الحامولى وصوته الفريد ينساب إلى المسامع، بكل الوقار من خشية الله وكل الرجاء فى فضله ومغفرته.. فتطرب القلوب ويأخذ بالألباب إلى عالم ليس من عالمنا!

كذلك كان الشيخ «على محمود» المقرىء ورائد فن الانشاد، يؤدى هذه «التواحيش» ويؤذن للصلوات الخمس من منارة جامع سيدنا الحسين رضى الله عنه.

ومن المعروف عن الشيخ على محمود أنه كان شغوفا بفن الموسيقى والطرب، فكان يؤدى هذه التسابيح قبيل آذان الفجر على نهج خاص: فيوم السبت كانت نغمته «عشاق» ويوم الأحد نغمته «حجاز» والاثنين نغمته «سيكا» و«الثلاثاء نغمته» «صبا أو شورى» و«الأربعاء نغمته» جركاه و«الخميس نغمته» «راست» والجمعة نغمته «بياتى».. وقد بلغ حدا من جمال الصوت واحكام الصنعة وبراعة التصرف فى فن الانشاد الدينى والموشحات، وهو أعظم من أنشد قصة المولد النبوى الشريف.. وكان رحمة الله ـ من سكان شارع «الباب الأخضر» ـ فإذا ما وطأت قدماه ميدان سيدنا الحسين، كان يخلع نعليه توقيرا لمقام سبط رسول الله.

وأشهر مسحراتى فى عصرنا الحديث الراحل الشيخ «سيد مكاوى» الذى تغنى بابداع الفنان العبقرى الجميل «فؤاد حداد».. مخترع الشخصية الفنية للمسحراتى، والتى صاغ ملامحها الرئيسية من: صوت الضمير وصوت التاريخ وصوت المجتمع وصوت السماء، وجوهر ابداع مسحراتى الوطن فؤاد حداد: عشق الانسان لوطنه هو فى ذاته عشق للمثل الانسانية العليا، فملأت طبلته أرجاء مصر أنغاما ندية مفرحة.. طافت بأحياء الحسين والسيدة والقلعة وبولاق.. إلى القنطرة والعريش.

ولنستمع إلى أجمل وأرق ما أبدعه فؤاد حداد فى.. «ليل رمضان»:

أصحى يانايم ..
وقول نويت ..
الشهر صايم ..

وحد الدايم
بكره إن حييت
والفجر قايم

إصحى يانايم
وحد الرازق
رمضان كريم

مسحراتى.. منقراتى ..
يافرح قلبى.. بيتنقل بى ..
أشوف قبالى على الطبالى ..
أقول يازرعه ..
وانتى يازلعه ..
لقمة هنية، تكفى ميه ..
متسلطنة، قال الزبادى ..
ست الحبايب.. يا محضنه ..
روح الضنى.. وأخضر بقشره ..

أقـــــــــول لــه اطـــــرا ..
بـــــــــــادور وأدور
مــن نـــــور لـنـــــور
صــحـــبــه زهـــــور
هـــــاتى الســـحــور
ســـــبع بـحــــور
فى ســـــــــلطانيـــة
وصـــــلـــت أنـــــا
أنـــا اللـى أصـــــلى
أســـــمر فى قـــــدره
ويـقـــــول لـى غـــمــس

خلص المدمس.. يامين يحمس.. لنا الوابور
قامت الرقيقة.. اختى الشقيقة، قالت دقيقة
والشاى يدور.. الله يخلى البرتقانه..
طلبت أحلّى.. قالت لى أنا.. شوف الشعور
المشى طالب لى.. والدق على طبلى
ناس كانوا قبلى.. قالوا فى الأمثال:
«الرجل تدب مطرح مـــا تحب»!
وأنا صنعتى مسحراتى ف البلد.. جوّال
حبيت ودبيت كما العاشق ليالى طوال
وكل شـــبــر وحـــتـــه من بلدى

حـتـه من كـبـدى.. حـتـه من مـوال

أنا اللى شفت الرياح تسكن قصب مسحور

شفت الجبال تنتقل والبحر يرمى. بحور

ولاشفت ليل ف الليالى.. زى ليل رمضان

إصـــحى يا نـــايم

وحـــد الـــدايم

الســعى لـلصـــوم

دى ليـــالى ســمــحـه

.. خـــيـــر من النـــوم

.. نجـــومـــهـا سـبـحـه

أصـــحى يانـــايم

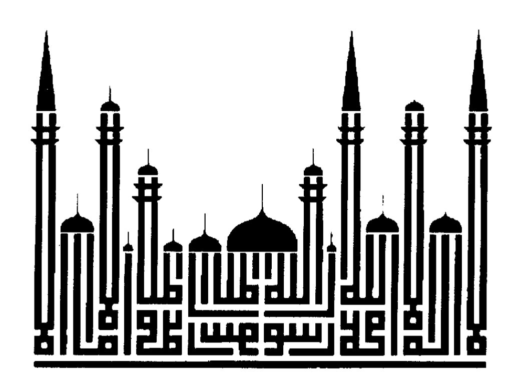
يـانـايم إصـــحى

وحـــد الـــرازق

رحم الله «فؤاد حداد».. المصرى الجميل الذى كان صوت وضمير ذلك الزمان.. الذى كانت فيه ليالى رمضان: آيات من الفن والنور الذى تتعدد ألوانه وتتسع دائرة بهجته!

في ليالي رمضان





سلطانة الطرب

فى ليالى رمضان

ويحدثنا الكاتب والمؤرخ الفنى
الراحل «كمال النجمى» عن ذكرياته وطقوس
الاحتفال بليالى رمضان فى ريف مصر، والتى كان
نجومها أشهر «الصييته» فى ذلك الزمان وعلى رأسهم
الست «منيرة المهدية».. فيقول:
أول مرة سمعت بعض أقاربى فى القرية يتحدثون عن المطربة
القديمة منيرة المهدية وزميلها المطرب عبداللطيف البنا، منذ
ستين عاما تقريبا، وأنا طفل صغير تلتقط أذناه كل
ما يستمع إليه من كلام الكبار
رجالاً ونساء..

سمعتهم يقولون إنها سلطانة الطرب، فلم أفهم بوضوح معنى هذا اللقب، وظل معناه غائما فى ذهنى حتى انقشع عنه الغيم بعد حين..

سمعتهم أيضا يسخرون منها ويقولون ان دولتها قد دلت بظهور المطربة الجديدة الشابة أم كلثوم، ولم تكن أم كلثوم قد بدأت تغنى على «التخت» وترتدى الملابس «الإفرنجية» إلا منذ ثلاث سنوات فقط.

أما المطرب عبداللطيف البنا فحين سمعت اسطواناته فى أيام الطفولة الأولى ظننته مطربة،، لأن صوته مؤنث النبرات، وأداءه أشد تأنيثاً!..

ولم أكن أظن أنى استطيع رؤية منيرة والبنا رأى العين، لأنهما كانا فى خيالى مجرد اسطوانات تدور فوق قرص الفوتوغراف، وتغنى كالجن من وراء حجاب!..

لكن شهر رمضان كان له فضل بتغيير نظرتى تلك إلى منيرة المهدية وعبداللطيف البنا وغيرهما من أهل الفن فى ذلك الزمان!..

كنت قد كبرت سنتين أو ثلاثا ودخلت كتاب القرية وتعلمت مبادىء القراءة والكتابة والخط والحساب، وحفظت «جزء عم» من القرآن الكريم، توطئة للالتحاق بالمدرسة الأولية، وصرت أجلس إلى كبار أهلنا باعتبارى من «حفاظ كتاب الله»!.. وكان بعضهم ينادينى متظلفاً: «ياسيدنا» كما جرت العادة بمناداة حفاظ القرآن!..

كان شهر رمضان يقترب، إذ جلست إلى هذه الجماعة من قومنا، فكان حديثهم كله يدور حول نذر من اعظم النذور فى رأيهم، قطعه أحد كبرائهم على نفسه حين كان مصاباً بداء عضال: لئن شفاه الله من هذا الداء ليقيمن احتفالا موصولا لا ينقطع ليالى شهر رمضان كلها!

وشفاه الله فآلى على نفسه ليكونن على رأس نجوم تلك الليالى أم كلثوم وفتحية أحمد والشيخ على محمود ومنيرة المهدية وعبداللطيف البنا والشيخ أمين حسنين!

وهكذا اقترب شهر رمضان ذلك العام، وأعدا قريتنا وما حولها من القرى، بليال مضيئة، وطرق مأنوسة عامرة ليل نهار!

لكن صاحب النذر عاد من القاهرة وفى صوته رنة أسف، يقول لأصحابه:

ـ أم كلثوم رفضت أن تخطو خطوة واحدة وراء أسيوط، لأن تجاربها فى «مديرية قنا» التى تتبعها قريتنا لم تكن تجارب طيبة.

قالوا له:

ـ وماذا عن بقية النجوم؟!

قال برنه أسف أيضا

ـ فتحية أحمد والشيخ على محمود اعتذرا، وكذلك عبدالوهاب.

ـ ومن سيجىء إذن؟!

ـ منيرة المهدية وعبداللطيف البنا. وربما الشيخ أمين حسنين أيضا، وقد دفعت لكل منهم مائة جنيه.

فى الليالى العشر الأولى اقبل الشيخ صديق المنشاوى الكبير -والد الشيخين محمد ومحمود اللذين يتردد صوتهما فى إذاعات القرآن الآن- وجاء معه الشيخ جلال، وهو صييت وقارىء جهورى الصوت، متين الفن، ضرير، جسيم أكول، لا أتذكر اسمه كاملاً..

وحضر الشيخ «أبوحقيق» ومشايخ آخرون مازلت أتذكر وجوههم وأزياءهم وإن نسيت اسماءهم!..

كان هؤلاء مشاهير قراء الصعيد الأعلى ورؤساءهم. ولم يكن لى عهد بسماع المقرئين يتغنون بالقرآن بالتلحين والتطريب.. فمبلغ علمى حتى ذلك اليوم كان مجرد قراءته بلا تلحين أو تغن، فظننت أول ما سمعت القراء يتغنون انهم فريق أهل الغناء لمرتجل بلا آلات موسيقية.

ثم لاحظت ان الكلام الذى يتغنون به قرآن.. لا شعر ولا زجل، فأصغيت إليهم أتبين الأمر، ثم أخبرنى العرفاء أن التغنى بالقرآن فن جميل لا يملك ناصيته إلا القلائل من الموهوبين!..

وفى الليالى العشر الثانية، جاء المغنون «الشعبيون» وهم بقايا طائفة الغجر والغوازى التى انقرضت وبقيت صناعة الغناء فى أحفادهم وحفيداتهم.

هؤلاء هم الذين نسميهم فى أيامنا الحاضرة بالمطربين الشعبيين وينسج على منوالهم بعض محترفى الغناء والتلحين الآن.. والحقيقة أن ما يسمى الان بالفلكلور أو المأثورات الغنائية، هو من أغانى الغجر والغوازى وسلالتهم، وليس للشعب المصرى، فلاحين وعمالا وتجارا وطوائف أخرى، أثر يذكر فى تأليف تلك الأغانى الفلكلورية أو تلحينها..

ولكن الشعب كان مجرد مستمع لها فلم يكن لأحد من أولئك المغنين الفلكلوريين نسب فى الفلاحين ولا فى غيرهم من الطبقات، لأن طائفة الغجر أو «الحلب» -بلغة الصعيد الأعلى- كانت طائفة هامشية خارج المجتمع وتقاليده وأنسابه، تعيش حياة البدو الرحل على ضفاف النيل!..

رأيت من حضروا عندنا من أولئك المغنين والمغنيات «الشعبيين» يفطرون فى رمضان، ولا يؤدون أية شعائر دينية فى ليل أو نهار، إذا قاموا للغناء فى السهرة كان غناؤهم غزلا يختلط فيه التصريح بالتلميح، ولكن التلميح يشف عما تحته كأنه التصريح!

لم أتذوق هذه الأغانى حين سمعتها أول مرة ولكنى حين كبرت وعاودت سماعها بنظمها البديع، ولحنها الشجى، عرفت قدرها، وأدهشنى ما تحتويه من رقة وشجن وشاعرية ورموز موحية ظليلة.

وكان من أحسنها ما غناه مطرب اسمه «عزب» يضرب على «الدربكة» بقوة ويغنى منفردا بصوت أجش عريض يملأ الساحة متحديا كل ما يغرقه به صاحبه يوميا من دخان «الجوزة» والأفيون والخمر!..

كان «عزب» يشنف أسماع اكثر من ألف مستمع يضجون مستحسنين مستعيدين:

فتنا على كوبرى اسنا/ ضربنا الهوى نعسنا/ واللى شبكنا. يخلصنا/ واللى خلقنا.. ينصفنا/ ويخلص القلب المشغول غرامك شغل بالى!

وفى أول الأيام العشرة الأخيرة رأيت بعد صلاة العصر حشدا من أتباع صاحب «النذر» يسوقون بغالا وحميرا، وفى المقدمة «عربة حنطور» جميلة يجرها حصانان!

سألت بعض الكبار:

ـ إلى أين هم ذاهبون بهذه الركائب وهذه العربة الفخمة؟!

قال:

ـ إلى محطة السكة الحديد، ليحضروا منيرة المهدية وعبداللطيف البنا ومن يصحبهما من البطانة والآلاتية، أى من المنشدين أو «الكورس» وعازفى الآلات الموسيقية.

كانت المحطة تبعد أكثر من خمسة كيلومترات، ولكن سرعان ما عادت عربة الحنطور تحمل منيرة المهدية وعبداللطيف البنا، ووراء العربة صف طويل متعرج من البغال والحمير تحمل المنشدين وعازفى الآلات الموسيقية.

كان الكثير من المنشدين القادمين من القاهرة يلبسون القفاطين والعمائم، لا فرق بين منشدى منيرة ومنشدى عبداللطيف، وبدت على الجميع علائم الإرهاق من السفر الطويل بالقطار اكثر من ستمائة كيلومتر، يقطعها فى اثنتى عشرة ساعة!..

ولكن الحياة كانت سهلة فى ذلك العهد، والريف تغمره الخيرات، وكل شىء يمكن تدبيره، والناس طيبون، والقليل يكفى كالكثير، بالرغم من الأزمة العامة الآخذة أيامئذ بخناق النظام الرأسمالى العالمى، ومن بينه مصر..

اختفت منيرة بسرعة داخل بيت صاحب النذر، وقامت النساء بخدمتها وازالة غبار السفر عنها، واعدادها للسهرة، وراقبتهن -وأنا طفل غير ممنوع من الدخول عليهن- وهن ينظرن بإعجاب شديد إلى محاسن سلطانة الطرب ومفاتنها.. وكانت منيرة حينذاك فى الخامسة والأربعين من عمرها، ولكنها تبدو أصغر سنا من جميع الشابات القرويات من حولها.

وجلس عبداللطيف البنا فى «المندرة» الكبيرة وقد استبدل بملابس السفر ملابس غيرها، والحضور من حوله يسامرونه ويرحبون به ويقولون له: رمضان كريم!.. ولم يكن قد بقى على الإفطار إلا ساعة.

فى السهرة ظننت أن منيرة المهدية ستغنى طقطوقتها «أسمر ملك روحى» أو غيرها من الطقاطيق الغزلية المشهورة.. وكنت احفظ فى تلك السن -وأنا دون العاشرة- طقطوقة «أسمر ملك روحى» حفظاً دقيقاً فوددت سماعها من منيرة «شخصياً» كما اسمعها من اسطواناتها!

وقفت منيرة فى بهائها وجمالها فملأت تلك الليلة من ليالى الشهر المبارك حلاوة وطلاوة.. وغنت قصائد الغزل الصوفى والزهد القربى إلى الله والرسول، كأنها تقول للمستمعين: هذه الليلة للسماء وحدها، ليس فيها نصيب للأسمر ولا للأشقر ممن ملكوا روحها!..

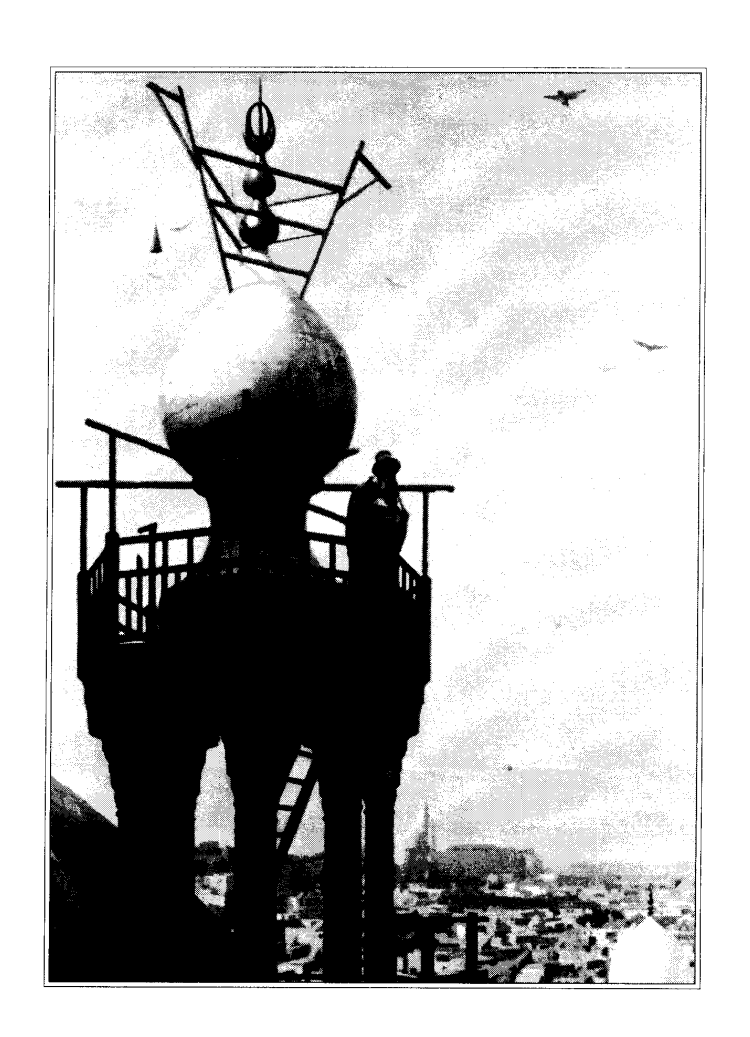
ورققت منيرة نبرات صوتها -هكذا أتخيلها الآن ولا أدرى أكانت كذلك أم لم تكن- وكان معنى هذا الترقيق أنها تخاطب فى المستمعين رقة أرواحهم وقلوبهم، وفى كل نبرة من صوتها همسة تقول: أعطونى قلوبكم!.. أسمعونى بأرواحكم.. دعونى هذه الليلة أغنى ولا أقترف ذنبا بل أكسب ثواباً!..

كانت منيرة فى تلك الليلة -كما تبدو لى الآن بعد تجارب السنين- تغنى بنصف أوتار صوتها،، بل بوتر واحد، وربما بنصف وتر -لو أمكن ذلك- حتى كاد الخفاء يحجب صوتها الكبير، فقد كانت تخاطب روح الإنسان، والروح خافية لأنها من أمر ربى!..

وارتفع صوت منيرة بقصيدة سلطان العاشقين الشاعر الصوفى عمر بن الغارض التى لحنها الشيخ أبوالعلا محمد:

غير على السلوان قادر/ وسواى فى العشاق غادر/ لى فى الغرام سريرة/ والله أعلم بالسرائر.

وكأنما انفجرت سرائر المستمعين طربا ووجدا، فهتفوا فى صوت واحد: الله أعلم بالسرائر! .. وقال العالمون ببواطن الأمور منهم: ها هى ذى سلطانة الطرب



تغنى كلام سلطان العاشقين، قدّس الله سره!

ولبث دوى الإعجاب يهز المكان، ومنيرة رافعة عينيها ترنو إلى السماء فى نصف اغماضة، حتى هدأ المستمعون وتواصوا بالصمت والإصغاء، ثم أخذوا يستحثونها:

ـ كمان والنبى يا ست!..

عادت منيرة تغنى:

ومشبه بالغصن، قلبى .. لا يزال عليه طائر حلو الحديث، وإنها لحلاوة شقت مرائر.

ولو جاءت منيرة بسكين حادة فشقت مرائر هؤلاء المستمعين، لما صرخوا طربا وهى تقول بملء صوتها: «.. وإنها لحلاوة شقت مرائر»! وصاح أحدهم:

يا سلطان العاشقين، ما أحلى كلامك فى فم سلطانة الطرب!..

سكر المستمعون بخمر الغناء ونداء الليل.. وهدأوا هدأة الشبع والرى والاستسلام للدعة والحبور، وكان كل كلام يقولونه عن حلاوة لقائهم بشعر عمر بن الفارض وأداء منيرة المهدية وألحان أبى العلا محمد، لا يفى بما يحسونه من وجد الطرب وما أثمره فى قلوبهم من الروح والريحان وجنة النعيم!

فى آخر الليل وقف على المنصة عبداللطيف البنا، وقال المستمعون: ليته يغنى القصيدة النونية!

سألتهم:

ـ وما القصيدة النونية؟!

أجابوا:

ـ اصبر حتى تسمعها!..

ولم يكد عبداللطيف البنا يقول: «إلهى ليس للعشاق ذنب».. حتى ضج المستمعون استحسانا، فهذا هو مطلع القصيدة النونية التى يطلبونها. وانطلق البنا يغنى بصوته الرفيع الشبيه بصوت الأنثى:

إلهى ليس للعشاق ذنب/ فلا خوف ولا هم يحزنونا/ ولا لوم عليهم فى غرام/ لأنك أنت تبلو العاشقينا.

وصاح الذين مسهم العشق الإلهى والحب الصوفى، وسالت دموعهم حتى أخضلت اللحى، واحمرت العيون، ثم أعجزهم الوجد عن الصياح، فأومأوا إلى المطرب بأصابعهم يستزيدونه، فانطلق وقد تسلطن وفاض بالنغم فى سخاء دافق:

فتخلق كل ذى وجه جميل/ له لحظ يصيد الزاهدينا/ وتودع جفنه الفتان سحرا/ به يسبى عقول الناظرينا/ وتأمرنا بغض الطرف عنه/ وقد أضحى الفؤاد به رهينا.

لم يكن ثمة ستار ينسدل على المطرب بعد أن أتم غناءه ولكن ستار الطرب انسدل على مستمعيه ولم يفيقوا إلا على صوت جهورى يدعوهم إلى طعام السحور.

لم يحضر الشيخ أمين حسنين إلا فى الليلة الأخيرة من رمضان.. كان جميلاً أنيقاً، تزيده العمامة جمالا، وتحسبه بزيه الأزهرى أحد علماء الأزهر الراسخين فى العلم!..

كانت الليلة الأخيرة هى ليلة الشيخ أمين حسنين، وليلة قصيدة البردة للبوصيرى..

والبردة فى الصعيد -وربما فى بلاد عربية كثيرة- تشبه أن تكون كلاما مقدسا.. لهذا يصغى إليها المستمعون كما يستمعون إلى الكلام المقدس.

ارتفع صوت الشيخ أمين:

أمن تذكر جيران بذى مسلم/ مزجت دمعا جرى من مقلة بدم/ أم هبت الريح من تلقاء كاظمة/ وأومض البرق فى الظلماء من أضم.

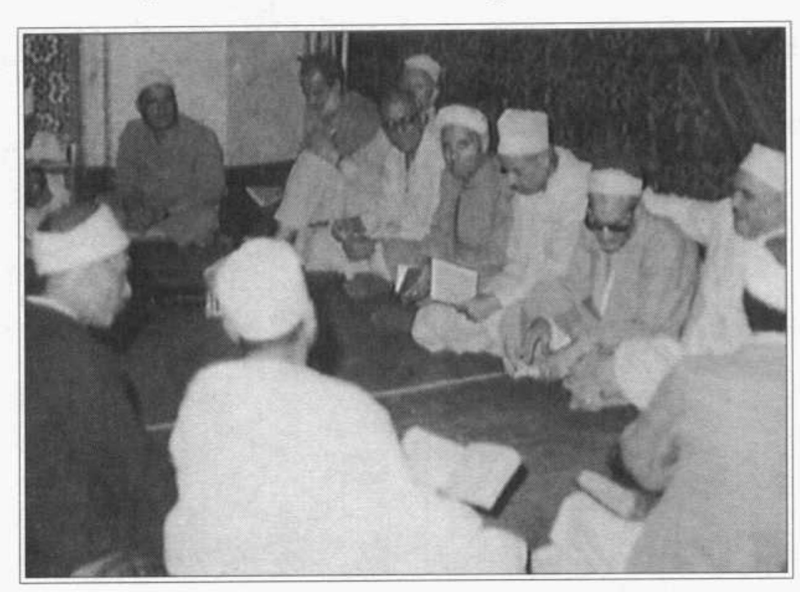
اشتد طرب المستمعين للفصل الأول من البردة فى الغزل وشكوى الغرام، ولكن طربهم تحول إلى ما يشبه «الهرير» فى ميادين القتال عندما انتقل الشيخ

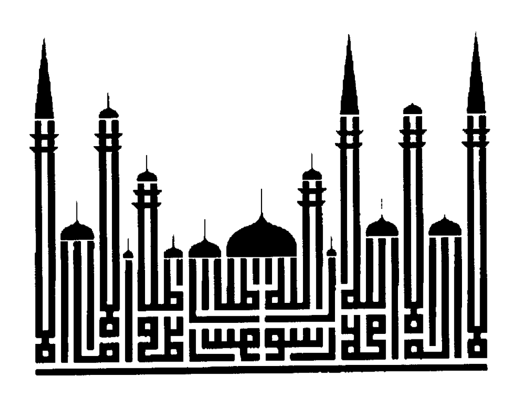
إلى الفصل الثالث فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام.

محمد سيد الكونين والثقلين .. والفريقين من عرب ومن عجم/ هو الحبيب الذى ترجى شفاعته. لكل هول من الأهوال مقتحم/ فمبلغ العلم فيه انه بشر/ وانه خير خلق الله كلهم..

كانت ليلة الشيخ أمين حسنين مسك الختام، وفى صبيحة عيد الفطر، جلس الشيخ فى «المندرة» ومعه عبداللطيف البنا، واقبل عليهما الناس مهنئين بالعيد.. وفى داخل «البيت» كانت نساء القرية والقرى المجاورة يحتشدن حول منيرة المهدية، يتبركن بها،، كأنها شيخة طريقة وكيف لا تكون وقد غنت شعر العارف بالله عمر بن الفارض، وأحيت بالزهد والورع ليالى شهر رمضان؟!

رمضان فى الكتابات المعاصرة





رمضان.. فى

الكتابات المعاصرة

عرض

أدباؤنا فى ابداعاتهم لكثير من
التقاليد والعادات الموروثة وانماط الحياة
فى مجتمعنا، ومنها مظاهر الاستعداد والاحتفاء
بشهر رمضان -على الرغم من ندرتها- إلا أننا نجد
أديبنا العالمى «نجيب محفوظ» قد استعرض استعدادات
أسرة مصرية لهذا الشهر الكريم من خلال رائعته «خان
الخليلى» فكانت لوحة متميزة غنية بالتفاصيل وتشابك
العلاقات الإنسانية، ثرية بالأضواء والظلال، عامرة بنبض
الحياة.. كما أفسح لنفسه المجال لتخليد صورة مصرية
مليئة بالدفء والحميمية.. تنسحب رويداً وبهدوء
من واقعنا المعاصر!

إلى هذا الحى العتيق.. بكل ما يملكه من رصيد تاريخى وفنى ضخم، انتقلت أسرة «عاكف أفندى» من حى السكاكينى -هرباً من غارات الألمان خلال الحرب العالمية الثانية- وهو ما فسره رب الأسرة فى تبريره لهذا الانتقال:

«هذا الحى فى حمى الحسين -رضوان الله عليه- وهو حى الدين والمساجد، والألمان أعقل من أن يضربوا قلب الإسلام وهم يخطبون ود المسلمين»!

هنا فى جوار المشهد الحسيني، والمآذن والقباب تملأ أجواء القاهرة المعزية، وحيث الحى الشعبى القديم مازال يحتفظ لليد البشرية بقديم ابداعها فى المهارة والفن.. دارت أحداث رواية «خان الخليلى».. وكانت هذه المشاهد الخاصة بالاستعداد لشهر رمضان فيقول نجيب محفوظ:

«.. واقترب رمضان، فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل، ولكن رمضان لا يأتى على غرة أبداً، وتسبقه عادة أهبة تليق بمكانته المقدسة، ولم تغفل أم أحمد عن ذلك، وكانت فى الواقع المسئولة الأولى عن جلال الشهر وجماله، فجعلت منه يوماً: حديث الأسرة، قائلة: انه شهر له حقوقه كما له واجباته، وكان قولها موجهاً لأحمد (ابنها الموظف بوزارة الأشغال) فأدرك مغزاه، وقال مدافعاً عن نفسه:

ـ رمضان له حقوقه مافى ذلك من شك، ولكن الحرب ضرورة قاسية جارت على جميع الحقوق!

فقالت الأم بلهجة دلت على عدم الارتياح:

ـ لا قطع الله لنا من عادة!

فاستيقظ بخله وقال بشىء من الحدة:

ـ ليمضى رمضان كما مضى غيره من الشهور، وسنعوض ما فاتنا منه فيما يقبل من أيام السلم!

ـ والنقل والكنافة والقطايف؟!

ووقعت هذه الأسماء من نفسه موقعاً ساحراً -على استيائه- لا لإشتهائها فحسب، ولكن لما دعته من ذكريات الشهر المحبوب وعهود الصبا.. فقال بلهجة حازمة رغم تحرك الحنان فى قلبه:

ـ لندع الكماليات فى ظروفنا الحاضرة القاسية، ولندع الله الكريم أن يعيننا على ضروريات الحياة، وكان اعتماد الأب «عاكف أفندى» على ولده أحمد.. فأشفق عليه وقال:

ـ حسبنا قليلا من الصنوبر والزبيب لضرورتهما فى الحشو، ونصف لفة قمر الدين لتغيير الريق، ولنقنع من الكنافة بمرة واحدة، ومن القطايف -وهذه لا تقلى بالسمن- بمرتين وليس ذلك عليك بكثير.

فهاله الأمر وأيقن انه سينفق فى هذا الشهر ما اعتاد توفيره كل شهر بالرغم من ضآلته!.. غير انه تذكر شيئاً لا يقل خطورة عن الكنافة والنقل فقال: واللحوم؟!

فقالت أمه بما لها عليه من دالة:

ـ سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم، وما ذلك إلا لأن قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المتهالك!»..

وانشغلت الأم فى الأيام الباقية بتهيئة المطبخ وتبييض الأوانى وتخزين ماتيسر من النقل والسكر والبصل والتوابل، وكان لمقدم رمضان فى نفسها فرحة وسرور «فرمضان هو شهر المطبخ كما أنه شهر الصيام» أو لأنه شهر الصيام. وأجمل من هذا أنه شهر الليالى الساهرة والزيارات الممتعة، حيث تدور الأحاديث على تسالى اللب والجوز والفستق.

«.. وجاء مساء الرؤية، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون، وعند العشى اضاءت مئذنة الحسين إيذانا بشهود الرؤية- وقد اجترأوا بالاضاءة على إطلاق المدافع لظروف الطوارىء- وازينت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياء لألأ، فطاف بالحى وما حوله جماعات مطبلة هاتفة «صيام.. صيام.. كما أمر قاضى الإسلام»! .. فقابلتها العلماء بالهتاف والبنات بالزغاريد وشاع السرور فى الحى كله..»

وكان أحمد عاكف يتابع من النافذة، فلم يتمالك أن يقول:

ـ أين من رمضان شارع قمر (حيث مسكنهم القديم بالسكاكينى) هذا الرمضان البهيج؟

فابتسم والده وقال: وماذا رأيت مما رأيت يا غلام؟.. اشهدت رمضان فى حينا الجديد هذا قبل اندلاع الحرب؟.. انه النور والسرور، انه الليل المنير اليقظان، انه الليل العامر بالسمار والمنشدين واللهو البرىء، وفى أيام الفتوة والصحة، كنت أسرى قبيل السحور بساعة فى جمع من الاخوان من السكاكينى إلى حينا هذا، نتسحر كوارع ولحم رأس وندخن البورى فى مقهى الحسين، ونستمع إلى اذان الشيخ على محمود ثم نعود مع الصباح الباكر.

-ثم مضى احمد- كعادته الجديدة- إلى مقهى الزهرة، ليجتمع بأصدقائه حيث دار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها، فقال عباس بصوته المبحوح:

ـ لا تتعبوا انفسكم فى التفكير، فلنا فى سهرات رمضان الماضية اسوة، نجىء إلى قهوتنا بعد الفطار ونسمر بها حتى منتصف الليل ثم ننتقل إلى «هناك» لنصل سهرتنا بالسحور!

وتنبه أحمد إلى «هناك» هذه!.. وتساءل: ترى هل يستبيحون المنكر فى شهر التوبة؟ على ان سبيله كان واضحاً، حيث قرر السهر معهم بالمقهى يتسامر وإياهم حتى يعود إلى بيته فيمارس هوايته المفضلة فى القراءة حتى السحور، وهكذا إلى ان يختم الشهر.

وروى نجيب محفوظ كيف كابد احمد عاكف فى اليوم الأول من أيام الصيام، وقد شق عليه ألا يشرب قهوته ويدخن سيجارته على الريق.. وعندما عاد من عمله إلى البيت وقد انهكه التعب، فاستلقى على فراشه وراح فى نوم عميق صحا منه قبيل الفطار بساعة واحدة، وفى طريق عودته من الحمام شاهد والده فى حجرته متربعاً على سجادة الصلاة يقرأ فى المصحف، بينما أمه فى المطبخ قد شمرت عن ساعديها، فوقف عند عتبة المطبخ وجال ببصره متشمما



الروائح الزكية، وطاف بطبق كبير حافل بعناصر السلاطة الخضراء «خضرة يانعة وحمرة فاقعة!» فانشرح صدره وتحلب ريقه. وانتقل إلى «سلطانية الفول» فلم يستطع صبراً وزايل مكانه، وفى الصالة مر بسفرة الطعام وقد هيئت، فوضع العيش على ركن منها وفرقت أمام كراسيها أكواب الماء وتوسطها طبق ملآن بالفجل!.. فهرع إلى حجرته، وفتح النافذة ليقطع الوقت المتبقى بالنظر، وقد أوشك الطريق أن يخلو إلا من باعة الزبادى.. ومن خلال النوافذ المفتوحة للبيوت المقابلة، شاهد موائد الطعام الحافلة وعلى الشرفات انتظمت «القلل» لتبرد، وتناثرت أطباق الخشاف وأتى الهواء بروائح التقلية.. «فتاه فى دنيا الطعام الساحرة»!..

وحانت اللحظة المرتقبة.. فدوى المدفع، وتصايح الأطفال فى الحارة، وانساب صوت المؤذن جميلاً رائقاً «الله اكبر.. الله اكبر».. والتف ثلاثتهم حول السفرة «ثم غيروا ريقهم على عصير قمرالدين حتى رووا ظمأهم، واتت الأم بطبق الفول المدمس فاقبلوا عليه بنهم شديد وتركوه أبيض من غير سوء»! فقال الأب:

ـ أظن الاوفق أن ندخر الفول حتى نصيب من أنواع الطعام الأخرى وإلا امتلأنا به وحده!

فقالت الأم ضاحكة:

ـ هذا ما تقوله كل عام ولكنك لا تذكره إلا عقب الفراغ من الفول!

ولكن لم يزل فى البطون متسع فجىء باللوبيا والفلفل المحشو واللحم المحمر، وتعاونت الأيدى والأعين والاسنان فى عزم وسكون!..

وقبيل العشاء، غادر احمد البيت إلى مقهى الزهرة والتقى بأصحابه، فراحوا يتسامرون ودار الحديث عن الصيام، تخلله التندر على «أصحاب الكيف»!

«ثم راح كمال خليل يتحدث عن ليالى رمضان منذ أقل من ربع قرن، قبل أن تغمر موجة الاستهتار التقاليد الدينية، وكيف كانت بيوت السراه تظل مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين، وتستقرىء مشاهير المقرئين حتى مطلع الفجر»!

وتمضى السهرة بالأصدقاء.. حتى «مر بالمقهى جماعة من الصبيان والبنات ملوحين بالفوانيس، هاتفين بأناشيد رمضان سائلين العادة»!!

فى رحاب السيدة زينب

حى السيدة زينب الاكثر عراقة وتميزاً بين أحياء القاهرة الاسلامية، فكان فى ذلك العصر «حى الأغنياء الذين لا يعرفون كيف ينفقون ثرواتهم، وحى الفقراء الذين لا يجدون قوتهم»! لكن البيوتات القديمة ذات الأصول ظلت محتفظة بتقاليدها رغم عوادى الزمن.. وميدان السيدة زينب قد اجتمع فيه القديم والجديد، والدين والدنيا، والطهر والفساد فى هدوء وانسجام كأحسن ما يكون التعايش والوئام!..

ومسجد السيدة الطاهرة زينب، تتسامى منارته فى رشاقة نحو السماء ونفحات عقيلة بنى هاشم تعبق الأجواء، وعلى مدار العام، يأتى أحبابها بالملايين من كل حدب وصوب، كثير منهم يفترشون الغبراء ويلتحفون بالسماء.. يكفيهم قرب الست.. ولمسهم لمقصورة ضريحها، متوسلين فى رجاء حاد بأم هاشم.. أم العواجز.. بنت الإمام وأختِ الإمام..

وفى رحاب مسجدها العامر، يخيّل إليك أن النور قد غسل الناس من أحزانهم وأحقادهم، يغمرهم شعور بالسعادة والرضا!

وكما كان لحى السيدة صفحات رائعة فى تاريخ المقاومة الشعبية للاحتلال البريطانى.. فقد كان أيضاً وطن الطفولة وملاعب الصبا ومطالع الشباب لكثير من أعلام مصر فى السياسة والأدب والصحافة والفن.. أذكر -على سبيل المثال: الشاعر على الجارم، إبراهيم المازنى، مصطفى لطفى المنفلوطى، عبدالعزيز البشرى، يحيى حقى، فتحى رضوان.. وفيه عاش الأديب الكبير توفيق الحكيم ثلاث سنوات من صباه قبيل ثورة ١٩١٩ فى بيت أعمامه بشارع سلامة خلف جامع السيدة زينب، هذه الفترة التى خلدها فى رائعته «عودة الروح» أيضا شيخ الصحفيين حافظ محمود.. وكاتبنا الكبير كامل زهيرى.

يحيى حقى.. قنديل حى السيدة:

فى حارة «الميضة» ولد الأديب الجميل «يحيى حقى».. وعاش فترة صباه فى رحاب السيدة الطاهرة، هذه الحارة التى اندثرت حيث دخلت فى توسعة جامع السيدة زينب فى الستينيات، كتب يحيى حقى عن القاهرة الألفية «أم المآذن والقباب، ومساجد آية فى الجمال.. مزار أهل البيت.. لا ينقطع الطواف حولها والتمسح بأعتابها، هنا أعياد مولد النبى ورؤية هلال رمضان، وجبر الخليج وطلعة المحمل وفنجرة شم النسيم، ومواكب الطوائف وأبوالغيط، ومواكب الطرق الصوفية بالبنادر والدفوف والبيارق»!..

وفى هذا الحى، أبدع يحيى حقى رائعته الخالدة «قنديل أم هاشم».. حيث الأسرة المصرية البسيطة تحتفى بالابن العزيز «اسماعيل» العائد من «بلاد بره» حيث درس الطب، وبرع أديبنا فى تصوير ما يجول فى نفس بطل الرواية من مشاعر نحو هؤلاء الناس، وهو الذى عايش فى انجلترا مجتمعاً مغايراً تماماً لمجتمعه الشرقى، فتضاربت القيم والعقيدة بداخله وتنازعته الأفكار والأهواء، وهو الذى «نشأ فى حراسة الله ثم أم هاشم، حياته لا تخرج عن الحى والميدان».

ويأتى أول رمضان على «اسماعيل» عقب عودته من انجلترا.. «فما خطر له أن يصوم، ابتدأ يطيل وقفته فى الميدان ويتدبر.. ويحدث نفسه: لماذا خاب؟ .. ودار بعينيه فى الميدان .. ما يظن ان هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين، إبن البلد يمر أمامه وكأنه خارج من صفحات الجبرتى»!

وحلت ليلة القدر.. «فانتبه لها اسماعيل، ففى قلبه لذكراها حنان غريب، ربى على اجلالها والإيمان بفضائلها ومنزلتها بين الليالى، لا يشعر فى ليلة أخرى -حتى ولا ليالى العيد- بمثل ما يشعر به فيها من خشوع وقنوت لله، هى فى ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليل.. أين انت أيها النور الذى غبت عنى دهراً؟ وغاب لحظة فى أفكاره «لقد زالت الغشاوة.. لا علم بلا إيمان» .. ايمانه ببركة أم هاشم!

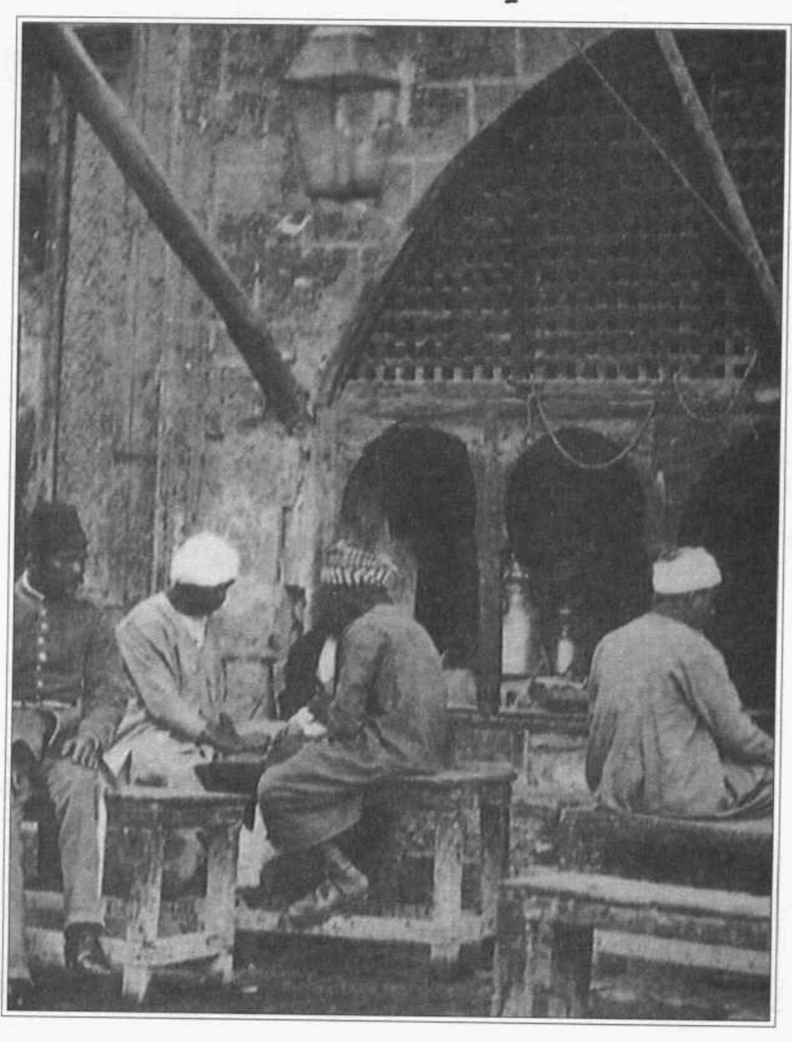
فتحى رضوان.. ومسحراتى شارع سلامة:

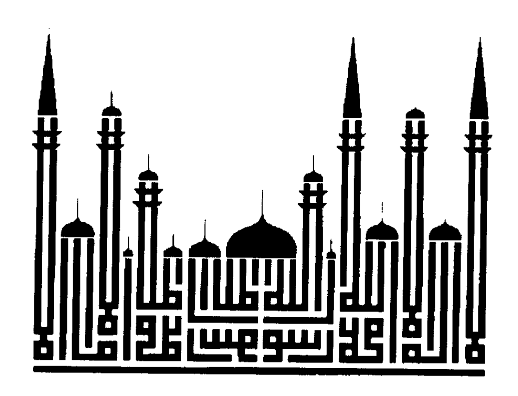
كان فتحى رضوان، وزير الارشاد القومى فى بداية عهد ثورة يوليو، والمحامى والكاتب الوطنى الكبير، من سكان شارع سلامة، وسطر بقلمه صفحات رائعة عن حياته وذكرياته فى حى السيدة زينب فى كتابه «الخليج العاشق»..

وعن ذكريات رمضان فى شارع سلامة، كان لفتحى رضوان هذه الصورة التى رسمها للمسحراتى، فقال:

«هى ظاهرة معروفة لكل مصرى فى القاهرة وفى غيرها، تلك ظاهرة المسحراتى والذى يطوف بطبلة صغيرة فى احدى يديه وجلدة فى يده الأخرى يدق الطبلة بالجلدة فى ليالى رمضان داعياً إلى الاستيقاظ، وتناول السحور. ولكن مسحراتى شارع سلامة وما حوله كان شخصية فنية فذة، لا يضارعه فى سحر غنائه مسحراتى آخر، ممن سمعت فى أحياء مصر واسكندرية وطنطا وبنى سويف وأسيوط، وهى بلاد اقمت فيها وصمت خلال اقامتى بها شهر رمضان، وسمعت صوت المسحراتى، فلم اسمع فيها جميعاً صوتاً لمسحراتى، كهذا الذى كان يوقظنا فى الليل البهيم، فى شارع سلامة، لتناول طعامنا ولم يكن صوته عذبا، إنما كان صوتا حياً منعشاً فياضاً بالبهجة، كان صاحبه شاعراً شعبيا ينظم المعانى الجميلة، فى الفاظ جميلة، ويحيى بها أهل كل بيت. وكان لدينا قط نحبه جميعاً اسمه «أصلان» فطلبت إلى هذا المسحراتى الفنان أن يحييه فيمن يحييهم من أهل البيت، وهو لا يدرى انه قط، فراح طوال شهر رمضان يصف كل ليلة أصلان هذا وصفاً لو أدرك القط معناه لتدلل علينا فوق دلاله، كان يقول له: «ياسى أصلان بك، يابن الكرم والجود ياللى يمر عليك رمضان بالفرح ويعود، وريحتك الحلوة فايحة زى الورد والعود»..!!

رمضانيات حافظ محمود





رمضانيات..

حافظ محمود

كان
شيخ الصحفيين الراحل ونقيب
الصحفيين الأسبق «حافظ محمود».. واحد من
نجوم هذا الحى العتيق. وكان بالتحديد من سكان شارع
السيدة زينب، وطوال عمره المديد، أثرى حياتنا بآلاف من
المقالات والدراسات كانت شهادة على العصر، ووثائق هامة
لأحداث سياسية واجتماعية وأدبية وفنية فى تاريخنا المعاصر، وكم
كان رائعاً فى كتابه «أسرار صحفية».. بطريقته الجذابة المعهودة
واسلوبه الرشيق، وقد عرض فى فصل ممتع من كتابه الجميل
«القاهرة بين جيلين» لذكرياته الرمضانية فى حى السيدة زينب،
كما عرض لمجتمع البيوتات العريقة والتقاليد الشعبية
المتوارثة فى هذا الشهر المبارك.. وسهرات ليالى رمضان
فى ذلك الزمان الجميل.
واترك قلم شيخنا ينساب مع فيض
الذكريات..

أربع نكت رمضانية سمعتها وأنا فى الحلقة الثانية من عمرى.. النكتة الأولى عن بنت الذوات التى قالت لزميلتها فى منتصف شهر رمضان: «رمضان السنة دى كويس خالص.. أول يوم فطرنا متعبناش، ثانى يوم فطرنا متعبناش، قلنا نفطر على طول!». تقابلها نكتة بواب العمارة التى تسكنها هذه البنت المفطرة وقد قال لزميله فى ثانى يوم من أيام رمضان: «هانت يامحمدين، فاضل عشرتين وتسعة ونعيّد خلاص!». والنكتة الثالثة نكتة ابن (الذوات) أيضا الذى قال لمن رآه فى ظهيرة يوم من أيام رمضان يحتسى كأسا: «لاتؤاخذنى.. أصل باسلى صيامى بكاسين!».. تقابلها نكتة زوجة البائع الساذجة التى كان زوجها كلما توفر له فائض من دخله قبل شهر رمضان اشترى به شيئا من الياميش، وكلما سألته هذه الزوجة عن هذا الخير الكثير قال لها: «دا عشان رمضان لما ييجى نأكل نص الياميش ونتصدق بالنصف الآخر».. وذات يوم فاجأت الزوجة زوجها بأن الشيخ رمضان حضر وأخذ الياميش كله..!!

كانت هذه النكت جزءًا من سيل من النكت التى كان نجوم الفكاهة يسهرون فى مقهى الفيشاوى على القائها فى اسماع الحاضرين على مدى ليالى رمضان الثلاثين أو التسع والعشرين. ولو دققت فى هذه النكت قليلاً تجد انها تمثل الثورة الاجتماعية التى كانت تجيش فى وجدان الشعب.

كان الشعب يرى ان (الذوات) أى أبناء الطبقة هم اقل الناس حرصا على الصيام، وكان الشعب يهاجم تقصيرهم الدينى بهذه النكت التى تبرز فى نفس الوقت اقبال الفئات الشعبية على الصيام والزكاة فى شهر رمضان، وليس شك ان هذه النكت كان فيها شىء من المبالغة، فالنكتة ان تعدت عنصر المبالغة لم تعد نكتة.

كان فيها شىء من المبالغة لمجرد المفاضلة بين الطبقتين.. فالواقع ان الصوم كان الفريضة التى يشترك فيها الجميع، اما عن تقوى الله، وإما بحكم العادة.

مجتمع البيوت فى رمضان

على أية حال لقد كان لرمضان فى الماضى القريب روحه الاجتماعية الخاصة سواء عند الذين يصومونه من خشية الله أو الذين يصومونه من خشية التقاليد. وكانت هذه الروح الاجتماعية تبدأ من داخل البيوت القديمة نفسها.

أول مرة احببت فيها الصيام فى طفولتى كانت المدفأة مصدر هذا الحب.. فذات ليلة وأنا دون سن الالتزام استيقظت على الهزيع الثانى من الليل على صوت فرقعة الفحم من مدفئتنا القديمة.. فلما استويت جالساً لاحظت ان من فى البيت -وكانت البيوت القديمة تضم عددا ليس بالقليل من أعضاء الأسرة الذين يجمع رمضان بينهم -لاحظت انهم ملتفون حول المدفأة كما لم يكونوا يفعلون فى غير رمضان، ولاحظت ان على نار المدفأة حبات (أبو فروة) تقلبها أمى ثم تقدمها بعد شوائها فى أطباق صغيرة إلى أعضاء الأسرة، فتاقت نفسى إلى المشاركة فى هذه الجلسة.

فلما انضممت إليهم مطالبا بنصيبى من حبات الابوفروة ابتسم أبى- رحمه الله- قائلا:

- الأكل فى هذه الساعة يا بنى للذين سيصبحون صائمين.

وبهذه الحيلة الأبوية اللطيفة قررت ان اصوم وأنا دون السابعة من عمرى، فقد كانت جلسة السحر فى شتاء تلك السنة تجتذب الاطفال من أمثالى إذ ذاك، فاعتادوا الصيام حبا فى هذه الجلسة، ثم اعتادوا الصيام من بعد حباً فى وجه الكريم سبحانه وتعالى.

كان مجتمع رمضان فى البيوت لايكاد يختلف فى بيت عن الآخر.. فجلسة السحر التى يتبعها اتمام طعام السحور ثم الانصات إلى اذان الفجر، حيث يتلوه اصطفاف اعضاء الأسرة من الجنسين بإمامة رب الأسرة لأداء الصلاة.

لقد كان الاصطفاف الاسرى فى طابور الصلاة يتكرر كل يوم من أيام رمضان مرتين، هذه المرة عقب اذان الفجر، والمرة الاخرى عقب اذان المغرب.

فعند الغروب تفرد سيدة الدار سجاجيد الصلاة.. حتى إذا ما انطلق مدفع الافطار ادارت على أعضاء الاسرة اكواب الياميش.. ثم يقوم الجميع رجالا ونساء إلى صلاة المغرب، ثم يلتفون حول المائدة لتناول افطارهم.

وعقب تناول الافطار تظهر ظاهرة ما من ظواهر التفرقة الجنسية، فالرجال يذهبون إلى المساجد لصلاة العشاء وصلاة التراويح.. أما النساء فتجتمع كل منهن إلى جارتها ليغسلن وجدانانهن بالثرثرة فى احاديث البيوت الخاصة.

ثم تظهر ظاهرة اخرى من ظواهر الفوارق الاجتماعية، فالموسرون من الرجال ينزلون إلى الطابق الأرضى من منازلهم ليستقبلوا الزائرين من جيرتهم وأصدقائهم، ويقضون السهرة فى الاستماع إلى المقرئين الذين يقرأون قرآن السهرة والتواشيح الدينية فى بيوت الاثرياء.. أما غير الاثرياء فيهرعون إلى المساجد ليجدوا فيها صورة مكبرة من هذه السهرة حيث كانت -ومازالت- وزارة الاوقاف تضيف إلى (المشايخ) فى كل مسجد من المساجد الكبرى واحدا أو اكثر من مشاهير المقرئين ليلتف حوله الناس فى ساحة المساجد فى اعقاب صلاة التراويح إلى ما قبل مطلع الفجر.

مجتمع الفئات فى رمضان

أما المجتمع خارج البيوت،، مجتمع الشباب فى الغالب، فكان له شأن آخر، وكان هذا المجتمع أيضا له طابعان: طابع الحى الحسينى وطابع شارع عماد الدين.

وفى الحى الحسينى كانت تتقدم فى شهر رمضان الاستعدادات باقامة الزينات على واجهات المقاهى واعلان كل مقهى، بطرقه الخاصة، عن نجوم الفكاهة الذين يسهرون فيه.

فى حى عماد الدين كانت المسارح تستعد بتمثيليات خاصة بشهر رمضان يراعى فيها جانب (الحشمة) فى المعانى التى تستهدفها هذه التمثيليات.

لقد كان المجتمع يرى أن رمضان شهر دين ودنيا.. شهر دين بالاكثار من العبادات، فضلا عن الصوم نفسه.. وشهر دنيا فى سهرات الشهر الفضيل.

وكانت هناك فئة وسط بين كل هذه المعانى.. كان ابناء هذه الفئة يلتفون فى ساحات البيوت القديمة فى القاهرة القديمة التى تقع حول الحى الحسينى.. وفى هذه الساحات كانت تقام صلاة الجماعة للتراويح، ثم تتلوها حلقات الذكر التى يتصدرها منشدون من ذوى الأصوات الرخيمة حتى إذا فرغ الحاضرون من اذكارهم دارت عليهم اكواب القرفة، الشراب الوطنى المفضل فى سهرات رمضان.

ومع احتساء اكواب القرفة يتبارى الشعراء والزجالون فى القاء قصائدهم وكثيرا ماكانت ازجال الزجالين تصحبها الفكاهات اللطيفة.

اننى مازلت اذكر موقفا مماثلا لأمير النكتة والبيان المرحوم الاستاذ الشيخ عبدالعزيز البشرى، فذات يوم كنا مدعوين على طعام الافطار عند أحد الكبراء وكان البشرى من ضيوف هذا الكبير، فلما قام الشيخ، يرحمه الله، عقب الافطار ليغسل يديه فى مكان آخر -اسرع احدنا إلى جبته المعلقة على المشجب فرسم بالطباشير الأبيض على كمها الأسود وجه حمار، فلما عاد الشيخ وفوجىء بهذا الرسم، إذا به يلتفت إلينا نحن فتية ذلك الزمان قائلا على البديهة: «دا مين ياولاد اللى مسح وشه فى كم الجبة»؟!

فى ليالى رمضان

لم تشهد صناعة فوانيس رمضان فى القاهرة عصراً أزهى من العشرين سنة التى تقع بين نهاية سنى الحرب العالمية الأولى وبين بداية سنى الحرب العالمية الثانية.

أما بعد الحرب العالمية الأولى فقد ازدهرت هذه الصناعة نتيجة لظاهرة اجتماعية من آثار ثورة سنة ١٩١٩.. هى ظاهرة (الاختلاط) فقبل سنة ١٩١٩لم يكن مسموحاً لابن الطبقة المتوسطة وما فوقها ان يخالط ابناء الطبقة التى تحتها، أما بعد سنة ١٩١٩.. بعد ان اشتركت البنات فى المظاهرات، وبعد أن سار العامل الصغير مع طالب المدارس العليا جنباً إلى جنب فى الحركة الوطنية، فقد ظهرت ظاهرة جديدة من الاختلاط بين الناس، وقد ترتب على هذه

الظاهرة زيادة حجم الصبية والصبايا الذين يحملون الفوانيس فى ليالى رمضان كانت الفوانيسمجرد أحجام صغيرة مربعة أومخمسة، فكبر حجمها وتعددت اشكالها بتعدد فئات الأولاد الذين يقتنونها.. ظهر الفانوس المصنوع على شكل عربة ترام.. والفانوس المصنوع على شكل قاطرة تجر عربات على صورة عربات السكك الحديدية. ومع التطور ظهرت فوانيس لا تضاء بالشموع التقليدية بل بمادة كيميائية جديدة، هى مادة الكرون الأبيض الذى كان يجعل من فانوس رمضان وكأنه مصباح كهربائى.. ثم زاد التطور فظهرت فوانيس تضاء بالبطاريات أيضا، وانتقلت صناعة الفوانيس الرمضانية من الأحياء الشعبية إلى الأحياء التجارية الكبرى كحى الموسكى وشارع فؤاد، وهو الآن شارع ٢٦ يوليو.

فانوس بمليمين

وللحقيقة اعترف اننى لم أشعر بكل جمال فوانيس رمضان إلا بعد ان فات اوانها بالنسبة لى.. بعد أن كبرت وانتقلنا من درب الجماميز إلى بيتنا القديم فى حى الحلمية الجديدة مع بداية الثلاثنيات.

يومئذ كان حى الحلمية لا يزال حياً (راقياً) أى حيا هادئا فيه ميادين صغيرة لا يمر بها أى نوع من أنواع النقل العام.. كان الهدوء فى هذه الميادين الصغيرة فرصة لتجمع الصغار فى ليالى رمضان وهم يحملون فى أيديهم الفوانيس المختلفة الاشكال والألوان.. لقد كان استبدال الفانوس بغيره أمرا ميسورا، فثمن الفانوس فى أول رمضان كان يتراوح بين خمسة مليمات وخمسة قروش.. أما إذا انتصف الشهر فإن سعر الفانوس يهبط إلى النصف.. أنا نفسى قد اشتريت لبعض اطفالنا فانوسا صغيرا فى منتصف رمضان بمليمين اثنين.

التوعية بالفوانيس

كان الصبية يشكلون بهذه الفوانيس حلقة مضيئة بأضواء بيضاء وحمراء

وخضراء تبعا لألوان زجاج الفوانيس، وقد اقتضى التطور الثقافى بين الصبية ان يتوسط هذه الحلقة صبى، أو صبية يحمل فانوساً كبيراً قد ركب على قمته علم.

لقد دخلت الوطنية صناعة الفوانيس وامتد التطور بلعبتها لكى تمسى يوما وسيلة من وسائل التوعية الوطنية بعدما كانت مجرد أداة للهو أبناء الفقراء الذين يطلبون شيئا من خيرات رمضان.

ومع ان فوانيس رمضان كانت تبدو مجرد لهو للصغار -إلا أنها فى الواقع كانت تمثل مظاهر الاحتفال القومى بقدوم شهر الصيام.. الشهر الذى كان دائما شهر عبادة بالنهار.. وشهر مباهج لا نهاية لها بالليل.

مقهى الفيشاوى

وما ان تذكر مباهج رمضان الساهرة حتى يذكر معها مقهى الفيشاوى الذى انتهى زهوه القديم.. وليس صحيحاً أن شهرة هذا المقهى كانت ترجع إلى الشيشة واكواب الشاى الاخضر، وانما كانت ترجع شهرته إلى اسلوب السهر فيه.. وهو اسلوب كان يختلف فى الماضى عن سنيه الأخيرة.

كانت فى مقهى الفيشاوى سهرة يومية يحييها بطلا الفكاهة الراحلان: الجزار والفار.. كان هذان الرجلان يتقارضان النكت من بعد صلاة العشاء إلى ان يحين موعد السحور.. كان الجمهور يقترح عليهما مادة معينة للتنكيت، كمادة الصحافة أو الزواج أو العمل فى الروتين أو غير ذلك، فإذا بهما يرتجلان مئات النكت فى هذه المادة.. وكانت نكتهما التى يصيح لها الناس من الضحك اسلوباً رائعاً من اساليب النقد الاجتماعى.

أما فى أوقات الازمات السياسية فكانت النكت كلها تنصب على الموقف السياسى، فكانت سهرات الفيشاوى فى هذه الأثناء متنفسا للجماهير.

كان مقهى الفيشاوى أول مقهى ترتاده النساء التقدميات من أهل الفن والأدب.. كن غالباً من رائدات الازياء الحديثة، وكان من التناقض ان النكت

التى تلقى فى وجودهن تتناول هذه الازياء بالنقد اللاذع.. لكنهن فى سبيل الفن كن يتقبلن هذا النقد بروح رياضية مرحة!

مسرح سياسى

إن سهرات الفيشاوى، وما شابهها لم تظهر فى مجتمع القاهرة السابق إلا متأخرة.. اما من قبل فكانت سهرات رمضان هى سهرات (المنادر).. كان كل بيت كبير أو متوسط به (مندرة) والمندرة هى غرفة الاستقبال بالنسبة للرجال فقط، وكان مكانها دائماً إلى يمين أو يسار الباب الخارجى للدار.. وكان حجم هذه المنادر فى القصور أو مايشبهها من البيوت يكبر فيصبح ما كان يسمى باسم (السلاملك) أى الجناح الخاص بالاستقبال بعيداً عن سائر مبانى الدار.

وكان من أبهج مباهج الطفولة بالنسبة لى ولأمثالى طبعا - أن أصحب أبى فى زياراته الرمضانية لأصدقائه في منادر أو سلاملكات بيوتهم.

ذات ليلة من ليالى رمضان صحبت أبي فى زيارته لبيت اكبر أعمامى -كان هذا البيت بشارع محمد سعيد الذى يقع الآن خلف مبنى مجلس الوزراء بحى قصر العينى، وهو نفس البيت الذى تشغله جريدة روزاليوسف قبل أن تنتقل إلى مبناها الجديد حالياً.. وبعد جلسة قصيرة اقترح عمى على أبى أن يذهبا سويا ونحن معهم بالطبع إلى دار جاره أحمد صادق (بك) والد السيد محمود صادق الذى تزوج فيما بعد من السيدة فايقة شقيقة الملك السابق فاروق.

هدية اكياس الذهب

كان الوازع الأول لهذه الزيارة صوت (الصييتة) أى المقرئين المشاهير الذين كانوا يحيون سهرة رمضان فى بيت هذا الجار.. لكننا ما كدنا نجلس هناك قليلاً حتى ظهرت فى البيت حركة غير عادية.. لقد اقبلت على الدار زائرة غير عادية.. كانت هذه الزائرة هى السلطانة ملك أرملة السلطان حسين.

كانت فرصة لطفولتي ان ارى موكب السلطانة.. لقد أقبلت فى عربة من عربات الخيل المطهمة كانت تسمى العربة (الكوبيل) بتشديد الكاف.. وكانت هذه العربة كغرفة صغيرة مربعة مبطنة بالحرير، وقد جلس إلى جوار قائدها (الجروم)، وهو فى العادة فتى صغير وسيم الطلعة يلبس بذلة زرقاء تكتنفها خطوط حمراء وازرارها العديدة من النحاس اللامع الذى يشبه الذهب، وكل وظيفة هذا (الجروم) هي ان يفتح باب العربة عند نزول ركابها فى انحناءات بروتوكولية عجيبة.

نزلت السلطانة وهى تلبس (اليشمك)، واليشمك هذا عبارة عن لفة حريرية بيضاء تلف جانبى وجه صاحبته بينما كان مئزرها الأسود يجرجر اذياله مع خطاها الوئيدة، وقد هرع الكل لاستقبالها وتحيتها بالانحناءات.. لكن السلطانة لم تلتفت إلا إلى الأطفال، وأنا منهم، فوقفت تربت على خدودهم. ولما صعدت إلى الطابق العلوى، طابق استقبال السيدات بعثت فى استدعاء اولئك الاطفال، وفى طريقنا إلى فوق علمنا صاحب الدار، وكان تشريفاتيا بالوظيفة كيف نقبل (الاتك) والاتك: هو ذيل مئزر السلطانة الذى كان يجرجر أثناء مشيتها.

هناك فتحت السلطانة حقيبتها، وأخرجت منها أكياساً حريرية صغيرة، أهدت كلا منا واحداً منها، وكان كل كيس يحمل عشرة ريالات ذهبية، ومع أن الريال كان يقدر بعشرين قرشاً.. إلا ان الريال الذهب الخالص كان فى حجم المليم.

لقد رأيت هذه الريالات مرة أخرى عند السيدة روز اليوسف.. لم تكن من عندها، انما كانت من الأميرة شويكار التى كانت تسكن المبنى الذى يشغله الآن مجلس الوزراء كانت فى يوم عاشوراء تهدى لجاراتها أطباق العاشورة.. وقد حلى وجه كل طبق بعدة ريالات ذهبية تختلط بقطع الياميش الأخرى!

سهرات الصالحين

لم تكن اغلبية الرجال فى العشرينات ممن يستسيغون السهر فى دنيا الفنون.. وحينما أقول (الرجال) فاننى اقصد الذين بلغوا الأربعين أو تخطوها،

كانت الشوارب التى يبرمونها والعصى الأنيقة التي يحملونها فى ايديهم تخلق حولهم جوا من الوقار لا يتناسب مع هذا النوع من السهر الذى كان فى رأيهم مقصوراً على الشباب.. وكان مكر الطفولة يحملنا على الشك فى هذا الوقار، وكان هذا الشك يصبح يقيناً حينما كنا نضبطهم فى حالة انسجام مع الاغانى القديمة.. لقد كان أحدهم يهتز طرباً إذا سمع اسطوانة صالح عبدالحى التى يقول فيها (ساهى الجفون ما كفاك الهجر ياساهى.. فرحان بتلعب وعن حال الشجى ساهى).. وكان أحدهم هذا يميل على أذن صاحبه ليقول له: «الولد ده صورة طبق الأصل من خاله»- والولد ده هو المرحوم صالح عبدالحى- وخاله هو المغنى عبدالحى حلمى الذى كان الجيل القديم يعتبره خليفة لسى عبده، وسى عبده هو (عبده الحامولى).

لقد حاول أمير الشعراء شوقى أن يقنع سعد زغلول بالاستماع إلى محمد عبدالوهاب في حفلة عامة أو حفلة خاصة، وبقدر ما كان شوقى يلح فى المحاولة كان سعد يلح فى الاعتذار.. مع أن سعد زغلول ككل كبار الخطباء، كانت له ميول موسيقية، بل لقد كان فى منفاه بجزيرة سيشل يقطع بعض الوقت فى الاستماع إلى مكرم عبيد وهو يغنى، والاكثر من هذا ان سعداً بنفسه كان يختار لمكرم قصائد الشعر التى يغنيها مكرم ومالم يكن منها ملحناً كان يتولى سعد بنفسه تلحينه!

اذن.. لم تكن المسألة مسألة (وقار) انما كانت فى باطنها مسألة التعصب الفطرى للجيل.. لقد كان أبى لا يتصور أن هناك مسرحاً بعد مسرح الشيخ سلامة حجازى الذى توفى سنة ١٩١٧ وكان رفاق ٧أبى حينما يسمعون اغنية أم كلثوم (اللى حبك يا هناه.. فى نعيمه أو شقاه) يعتبرون ان هذا مجرد عبث من عبث الأطفال!

ومعنى هذا أن رجال الجيل القديم كانت تنطوى نفوسهم على ميول فنية مكبوتة.. وكانت هذه الميول تعتاض عن نفسها فى رمضان بالاندماج فى التواشيح والاناشيد الدينية.. أما متى وأين كان يتم هذا الاندماج.. فهذا ما كان يحدده مجتمع الرجال فى تقسيم سهرات رمضان.

حضرة كل ليلة

كانت السهرة الرمضانية كل مساء عند جار أو صديق.. كانت سهرة موسيقية لكنها تأخذ الطابع الدينى أو العكس فيما كانوا يسمونه باسم (الحضرة).. والحضرة هى اجتماع فريق من الأحباء فى الله بشيوخهم الذين ينظمون لهم حلقات ذكر هادئة لطيفة تتخللها الاناشيد ممن حسنت أصواتهم.

كانت الحضرة تبدأ بعد صلاة التراويح.. تبدأ بتقديم شراب القرفة الساخنة الذى (يسلك الحناجر).. وبعد تناول القرفة فى احاديث خاصة يبدأ تناول الاستفسار عن الصحة والأولاد -ثم يتصدر الشيخ القاعة التى تنتظم فيها هذه الحضرة فى جلسة كجلسة التشهد فى الصلاة، ثم يضرب ركبته بكفه ايذانا بافتتاح الاذكار قائلاً فى نبرة ممدودة.. «الله».

وبمنتهى السرعة يكون كل البكوات والأفندية والمشايخ الحاضرين قد نزلوا من على الكراسى أو عن الشلت -حسب نظم البيت- للجلوس على السجادة الكبيرة متأهبين لترديد اللفظ الثالث الذى ينطق به الشيخ، ولا بد أن يكون هذا اللفظ من أسماء الله الحسنى، حيث يردد الشيخ والكل يتبعونه، هذه الأسماء اسماً اسماً عشرات المرات.

حتى إذا ما تمت هذه الوجبة الروحية فى ساعة أو تزيد أمر صاحب البيت بالوجبة الثانية من شراب القرفة.. وغالباً ما تكون هذه الوجبة الثانية مصحوبة بأطباق ياميش.

وبين قزقزة الياميش وارتشاف القرفة يعود الحضور إلى أحاديثهم الخاصة.. وهنا لا بد أن يلاحظ الشيخ ان أحداً ما قد تجاوز فى الأحاديث الخاصة ما يليق بأدب رمضان فإذا به يرفع يده مناديا: قولوا معى: «استغفر الله..» ثم يلى الاستغفار دعاء التوبة الذى يعودون بعده إلى وجبة الاذكار الثانية. ولا بد أن تتخلل هذه الوجبة وصلة من التواشيح الدينية من أحد ذوى الأصوات الجميلة.

ثم يعود الكل إلى مقاعدهم لينصتوا إلي قارىء الحضرة وهو يتلو بعض أيات الكتاب إلى ما قبل السحور بقليل حيث يبدأ الحضور فى الانصراف وهم يتواعدون على اللقاء غداً أو بعد غد عند صديق آخر.

وكان الذين ييسر الله لهم فى الرزق يبدأون هذه الاجتماعات الرمضانية الساهرة مع طلقة مدفع الافطار حيث تكون الموائد ممدودة للقادمين.. حتى إذا ما أذن مؤذن البيت اذان المغرب طاف أحد الخدم على الحاضرين بطبق «البلح الابريمى» الجاف ليأخذ كل منه ما يشاء لما كانوا يسمونه (شق الصيام) ثم يقومون لصلاة المغرب جماعة.. حتى إذا ما قضيت الصلاة تناولوا افطارهم الذى كان عادة ينتهى بطبق الكنافة أو القطائف.. ثم يقومون لصلاة العشاء تتلوها صلاة التراويح.. ثم تبدأ (الحضرة) بعد قليل.

ولقد كان هذا البرنامج كله يتم أحيانا، وأحياناً كثيرة، خارج البيوت، فاللقاء، باتفاق سابق، فى أحد المساجد الكبرى، وخاصة مسجد سيدنا الحسين.. الافطار فى أحد محال الحى اللاتينى ثم العودة إلى جناح خاص بالمسجد تتم فيه مراسم الحضرة كاملة بما فيها تناول شراب القرفة. وفى هذه الحالة كان تضاف إلى البرنامج فقرتان اخريان: فقرة تناول طعام السحور فى أحد مقاهى الحسين ثم العودة إلى المسجد لصلاة الفجر.

مؤتمرات رمضان

كانت هذه تسمى سهرات الصالحين. أما الذين كانوا وسطا بين حرارة الدين وحرارة الدنيا فكانت لهم سهرات ذات طابع آخر.. كان الرجال من هذه الفئة يرون أن صلة الأرحام من سنن رمضان، فكان أحدهم يقسم بيوت الأقرباء والانسباء والاصدقاء على طول أيام الشهر بحيث يزور كل بيت ليلة.. كانت هذه الزيارات تتسم بالطابع العائلى المتكامل، الطابع الذى تلتقى فيه الأسرة بكامل هيئتها من نساء ورجال وأطفال، قلما كان يتيسر هذا التكامل فى غير سهرات رمضان.. وكان الزائر لا ينسى فى طوفته ان يحدد لمن يزورهم يوما من أيام الشهر يكون افطارهم وسهرهم عنده.

بل لقد كان يتم فى هذه الاجتماعات الاسرية ما هو أهم واخطر.. لقد كانت هذه الاجتماعات فرصة لاستكشاف ميول شباب البيوت من الجنسين بعضهم نحو البعض، وكان استكشاف هذه الميول ينتهى عادة بأن تتمايل الرءوس، رءوس الآباء أو الأمهات بالهمسات بأنها -أى بنت البيت لا تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها- فإذا كانت هذه الهمسات مصحوبة برضا العيون من الأباء والأمهات، كان هذا إيذانا بتحديد موعد (قراءة الفاتحة) وكانت قراءة الفاتحة تعنى ان خطبة قد تمت بين ابنة فلان وابن فلان.. أما (كتب الكتاب) أى عقد القران فكانت التقاليد تمنع عقده فى رمضان، لا لأنه محرم فى هذا الشهر.. لكن لأنه يكون عادة مصحوباً بالزغاريد والطبول التى لا تليق مع وقار الشهر الفضيل.

وهكذا كان شهر رمضان شهر الحب بين الجميع.. كل على طريقته، فعشاق الفنون يمارسون عاطفتهم فى دنيا الفنون، وعشاق الصوفية يمارسون عشقهم فى الحضرة، وعشاق التكامل العائلى يمارسون تكاملهم فى هذه السهرات العائلية.

المجتمع النسائى فى رمضان

صوم رمضان وعدم صومه كان مسألة طبقية بالنسبة لنساء القاهرة في الأربعينيات.. فى الأربعينات بالذات.. حيث كانت تنبع من ملابسات الحرب العالمية الثانية (صالونات) فى بيوت حسناوات من جنسيات مجهولة كن يخالطن المصريين والمصريات من أبناء الطبقة الراقية لاغرائهم واغرائهن بأشياء تهز القيم الروحية اهتزازاً، تتم فى ظله حركات الدعاية والتجسس التى كانت الحسناوات صاحبات الصالون يقمن بها لحساب الحلفاء الغربيين، ويخالجنى شك يرتفع إلى مستوى اليقين أن بعض هؤلاء الحسناوات كن يهوديات ينفذن بعض المخططات الصهيونية الخاص بتنويم نزعات القومية العربية تمهيداً لما قامت به الصهيونية بعد على أرض فلسطين.

فى هذا الجو كانت بنت الطبقةالعالية، التى كانت تسمى (بنت ذوات) لا تصوم وتعلن أنها مفطرة.

وكانت بنت الطبقة التالية التى تتشبه ببنات الذوات لا تصوم وتعلن انها لا تصوم حين تلتقى بمجتمع بنات الذوات، فإن التقت بغيرهن ادعت انها صائمة!

أما الطبقات التالية فى سلم الترتيب الاجتماعى القديم فكن حريصات على الصيام حرص الرجال أو يزيد، إلا الطبقة الدنيا من الكادحات كان نصفهن يصمن فى اصرار والنصف الآخر يفطرن كرها دون أن ينقذهن أحد.

ولم تكن طبقية الصيام والافطار عند نساء القاهرة فى الأربعينات قاصرة على الترتيب الاجتماعى القديم، بل كانت ذات صلة أيضا بالترتيب الزمنى.. ترتيب الأعمار، فالمرأة فوق الخامسة والأربعين كانت متمسكة تمسكاً مطلقاً بالصيام.. ان أمى قد ماتت وهى صائمة رغم تحذير الطبيب لها مرارا من خطر الصيام على حالتها الصحية- وكذلك كانت تتمسك بالصيام الفتيات اللواتى لم يبلغن الخامسة والعشرين لأن الصيام رياضة نفسية وبدنية، بديعة- أما نساء ما فوق الخامسة والعشرين ودون الخامسة والأربعين، فكن بقدرة قادر يصبن أحياناً بما يسمى (العذر الشهرى) من أول رمضان إلى آخره يؤكدن، زورا، انهن مضطرات إلي عدم الصيام!

الحصيلة على أية حال ان غالبية القاهريات إلى ما قبل الخمسينات كن من أنصار الصيام..

رمضان سجن العفاريت

ومع هذا فما من أحد كان يحتفل بقدوم شهر رمضان، كما كانت تحتفل به السيدات والآنسات فى الجيل الماضى.. كانت الغالبية منهن يظهرن فى نهار رمضان بلا مساحيق ولا وسائل اخرى للزينة.. لقد كان الاعتقاد السائد ان الزينة مفطرة، فكانت المفطرات ينافسن الصائمات فى الانصراف عن الزينة نهاراً كاعلان صريح بأنهن صائمات.

وكانت لرمضان بركات خاصة فى مجتمع بنات البلد حيث كانت تكثر قبل حلول رمضان حفلات الزار وعمليات الاسحار.. هذه الحفلات والعمليات كانت تتوقف تماماً ابتداء من ليلة (الرؤية) لأن الاعتقاد السائد بينهن أن رمضان المعظم يسلسل (الاسياد) بسلاسل تمنعهم عن الحركة خلال أيام رمضان الثلاثين.. وكانت بنات البلد يستبدلن بهذا اللون من النشاط نشاط آخر طوال أيام رمضان، هو زيارة أضرحة الأولياء. وهناك كانت تروج تجارة الأحجبة التى تمنع الحسد وتعمى عيون منافساتهن على الرجال!

وكما كانت تروج فى أوساط هؤلاء النساء تجارة الاحجبة، كانت تروج أيضا تجارة البخور.. وكان من أجمل الأوضاع فى الأحياء الشعبية أن تشم ساعة اطلاق مدفع الافطار رائحة البخور تنبعث من وراء الجدران.

وكانت بنت البلد فى رمضان سيدة من سيدات الموقف، فهى التى (تثقف) السيدات الاخريات فى حكمة البخور، وهى التى تفتيهن فى الحلال والحرام.. ورغم ما كان يتكرر فى هذه (الثقافة) الساذجة من أخطاء، إلا انها كانت مظهراً من مظاهر التضامن الاجتماعى النابع من فلسفة رمضان.

احاديث رمضان النسائية

على ان المجتمع النسائى القاهرى فى رمضان كان أظهر ما يكون فى المساء.. لقد كانت ليالى رمضان فى الجيل الاسبق بمثابة ليالى الافراح بالنسبة للمرأة.. كانت التقاليد تجعل سير النساء فى المساء وحدهن أمراً مكروهاً طوال العام.. لكن إذا ما أقبل رمضان كان خروج النساء إلى الطريق فى تنقلاتهن بين البيوت والمحال العامة شيئاً عادياً.

وكان من بركات رمضان على النساء أن تقليد (يوم المقابلة) الذى كان قاصراً على الأسر الكبيرة ينتقل إلى جميع الأسر المتوسطة وما فوقها ومادونها أيضا.. كل ربة بيت كانت تحدد لها يوم مقابلة (اسبوعى) لصديقاتها حيث تقضى الصديقات السهرة كاملة عندها وما كان هذا ممكناً فى غير رمضان.

وفى السهرة كان للأحاديث الرمضانية طعم آخر غير أحاديث الأيام الأخرى، أحاديث الأيام الأخرى كانت تدور، بالطبيعة، حول الموضات غالبا، أما أحاديث رمضان فكانت تدور حول الموضة أيضا لكنها موضة الموائد وما عليها من القطائف والكنافة والخشاف وكيف تتفنن كل واحدة فى صنع أصنافها.

كانت هذه الأحاديث تجرى بين طرقعة الكسارة التى يكسر بها الياميش من اللوز والجوز وعين الجمل، وكلها من المواد التى تدعو للبدانة، لكن السمنة كانت موضة الجيل الأسبق عند النساء.. لقد كانت نحيفة القوام تتهم بأنها مريضة لا تملأ العين.. عين الرجل طبعاً!

فالرجل كان دائماً موضع أحاديث المجتمع النسائى حتى فى سهرات رمضان النسائية.. وكان الأطفال وخاصة منهم البنات، الذين يسترقون السمع من خلف الابواب إلى هذه الاحاديث يسمعون عجباً.. يسمعون عن فلانة التى يذوب زوجها حياته فيها، بدليل انها طلبت منه مضاعفة كمية الياميش فى هذا العام، فلم يثر ولم يغضب واستدان لكى يلبى طلبها.. وفلانة التى طلبت مثل هذا الطلب فهددها زوجها، لا بالطلاق لكن بأن يتزوج عليها من عروس أخرى.. الخ.

لكن كان يحدث بين الحين والحين، أن تنتبه احداهن بأنهن أوغلن فى الاغتياب فتقف بينهن واعظة مرددة آية التوبة لكى يرددنها هن الأخريات!!

محمود السعدنى و.. الاسطوانة المشروخة!

اسطوانة مشروخة نسمعها فى كل مكان من أبناء جيل العبد لله أبناء الجيل الوسيط، اسطوانة مشروخة كما قلت تردد فى رتابة، رمضان زمان كان أفضل، رمضان زمان كان أحسن، رمضان زمان كان أبهج، أما رمضان اليوم فقد «فقد» بهجته وانطفأت لمعته، وصار شهرا من الشهور وجزءًا من العام، يأتى ويمضى دون أن يترك فى حلوقنا نفس المذاق الذى كان له فى سابق العصر والأوان ويسمع شباب هذا الجيل كلمات الاسطوانة المشروخة من أفواه أمثالى

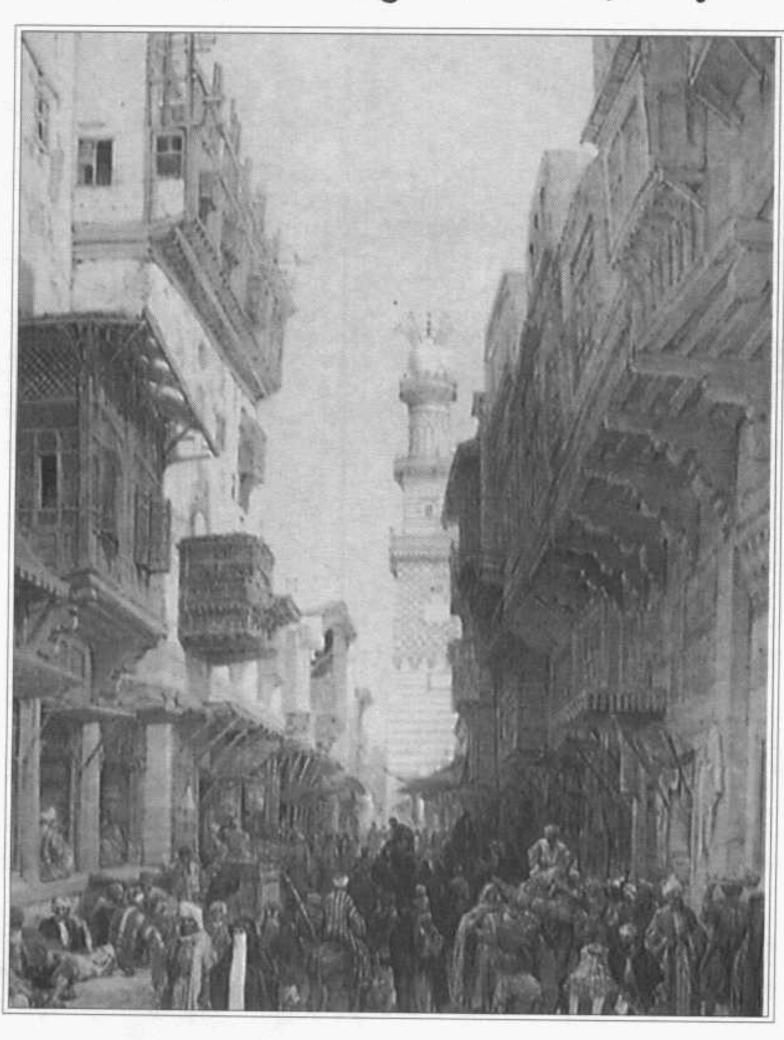
من العواجيز، ويظنون ان رمضان زمان كان أفضل من رمضان الآن ، ويركبهم الهم لأنهم لم يشهدوا رمضان القديم الذى شهده الآباء والأجداد. وهو يظن كله إثم.

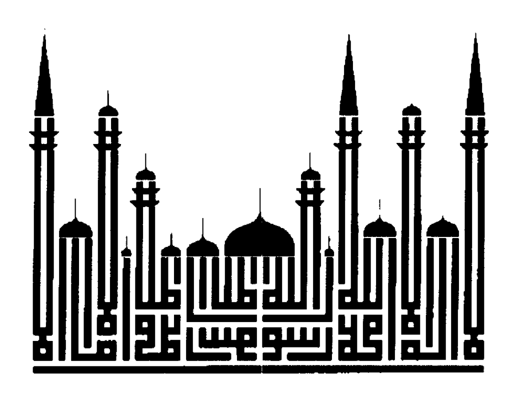
فالحقيقة المرة ان رمضان زمان كان اكثر بهجة، ولكن لسبب لا يخطر على البال، لقد كان رمضان بهيجا لأبناء جيلى، بسبب فقرنا وجوعنا وسوء أحوالنا وظلام ليالينا، وليس لسبب آخر على الإطلاق!.. آخر من قرأت لهم رثاء فى رمضان القديم، هو الطبيب النابغة خيرى السمرة، وهو من جيل العبد لله على ما أعتقد وما نطق به الطبيب العبقرى حق، ولكنه حق -للأسف الشديد- يراد به باطل. ليه؟ خد عندك، زمان لم يكن أحد فى مصر إلا قلة قليلة تأكل اللحم كل يوم، كان اللحم رخيصاً فعلاً ولكن الفلوس كانت غالية، وما عدا أبناء الباشوات والبكوات وطبقة العمد والأعيان، لم يكن أحد من بقية عباد الله يأكلها إلا مرة كل اسبوع وأحياناً مرة كل شهر، وأحيانا أخرى مرة كل عيد. ولكن إذا جاء رمضان، صار اللحم طبقاً رئيسياً على مائدة الافطار. وكان هذا سبباً من أسباب بهجة رمضان وأغلب أبناء شعبنا كان لا يأكل الحلويات، وبعضهم كان لا يعرف عنها شيئا وانما يسمع بها. فى الجيزة مثلا كان يوجد دكان حلوانى واحد هو حلوانى الشام، وكانت أحوال الدكان ليست على ما يرام، ومستوى صاحبه عم الحاج على الشامى فى مستوى أى عامل من عمال ماتوسيان، ولكن فى رمضان كانت الكنافة تدخل البيوت باعتبارها من مظاهر رمضان. وكانت الكنافة هى الأخرى من أسباب بهجة رمضان، زمان أيضا كانت الإذاعة تغلق أبوابها فى الحادية عشرة مساء، وكان لا يوجد فى مصر إلا اذاعة واحدة، هى اذاعة البرنامج العام، ولم يكن هناك تليفزيون ولا فيديو، ولا شىء على الإطلاق مما نراه الآن. ولكن فى رمضان كانت الإذاعة تمتد إلى منتصف الليل، ثم تعاود الإرسال مرة أخرى عند السحور، وتنتهى بعد إذاعة صلاة الفجر، وكان هذا الترف الإذاعى من أسباب بهجة رمضان. وزمان أيضا كانت الأحياء الشعبية تغرق من المغرب فى الظلام، لم تكن هناك فوانيس نور أو لمبات كهرباء إلا فى الشوارع الرئيسية، وكنا ونحن صبية نخشى العفاريت التى

تظهر فى الظلام، فإذا جاء رمضان، انتشرت الأضواء فى كل مكان، أضواء ساذجة وبسيطة، ولكنها أضواء على كل حال، وكان انتشار الضوء فى رمضان سببا من أسباب بهجة رمضان، وعلى أيامنا كان السهر ممنوعاً للصغار بعد الثامنة مساء لكن فى رمضان كان السهر مباحاً حتى السحور.

ولذلك كنا ننطلق على هوانا فى رمضان، نجوب الشوارع، ونسهر فى المقاهى، دون أن نخشى عتابا أو عقابا، وكانت حرية السهر سببا من أسباب البهجة فى رمضان. حتى المتسولين كانوا من اسباب بهجة رمضان. كانت جموعهم تهجم على حارتنا بعد الافطار مباشرة، بعضهم يصرخ وبعضهم يبكى، وفى حالات نادرة كان المتسول يستدر عطف المحسنين بالغناء. وكان من بين هؤلاء بنت غجرية تدق وشماً على ذقنها، وكانت مليحة الوجه وشابة فى ربيع العمر، ولم تكن تحمل معها إلا مخلاة وطارا، وكانت تدق عليه دقات رتيبة عميقة تمس شغاف القلب، وكان صوتها مبطوحا ومجروحاً ويسيل دماً، وكنت أتبعها كالمجنون من حارة إلى أخرى، وكانت هى الأخرى من مباهج رمضان، وكنا جميعا ننتظر وصول المسحراتى بالطبلة ومعه مساعد يحمل الفانوس لكى ينير له الطريق، لكى يتجنب العثرات فى الحفر والمطبات، وكان المسحراتى يقف عند كل بيت وينادى على أهله بالأسم ثم يغنى موالا فى مدح الرسول وكان المسحراتى من أسباب بهجة رمضان، وفى منتصف الثلاثينات لم تكن أجهزة الراديو قد انتشرت بعد، فكنا نذهب ونحن صبية إلى شاطىء النهر لنشاهد عملية إطلاق المدافع من أمام مركز البوليس، وبعدها نجرى مهللين فى الشوارع الخالية، نعلن للجميع بصوت كالجاعورة ان موعد الافطار قد حان، وكانت هذه العملية الساذجة من اسباب بهجة رمضان، وفى الأربعينات، كانت هناك سرادقات لتلاوة القرآن الكريم، أهمها السرادق المقام فى ميدان عابدين. وكانت الناس تحج إليه لتستمع وتستمتع بفن مشاهير المقرئين كالشيخ محمد رفعت والشيخ عبدالفتاح الشعشاعى والشيخ محمد سلامة والشيخ أبوالعينين شعيشع، وكانت هذه السرادقات من أسباب بهجة رمضان!

عبد الرحمن صدقي وأحلام رمضان





عبدالرحمن صدقى

و.. أحلام رمضان !

الشاعر الرومانسى الرقيق
«عبدالرحمن صدقى» والذى كان ثالث مدير
مصرى لدار الأوبرا الملكية (١٩٥٤ - ١٩٥٦) ولد بحى
«الدرب الأحمر» عام ١٨٩٨.. وكان باختصار شديد: رجل الأدب
والموسيقى والأوبرا والباليه، اشتهر كشاعر وكاتب صحفى
وناقد فى الأدبين العربى والغربى وفى تاريخ الفن.. وحصل على
جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٠.. ومن بين المناصب التى
شغلها: مدير مصلحة الفنون، ومستشاراً للتليفزيون وأشرف
على فرقة باليه التليفزيون، والتى كانت تجرى بروفاتها فى
فيلته بمصر الجديدة، واستاذاً للأدب والمسرح بالمعهد
العالى للفنون المسرحية.

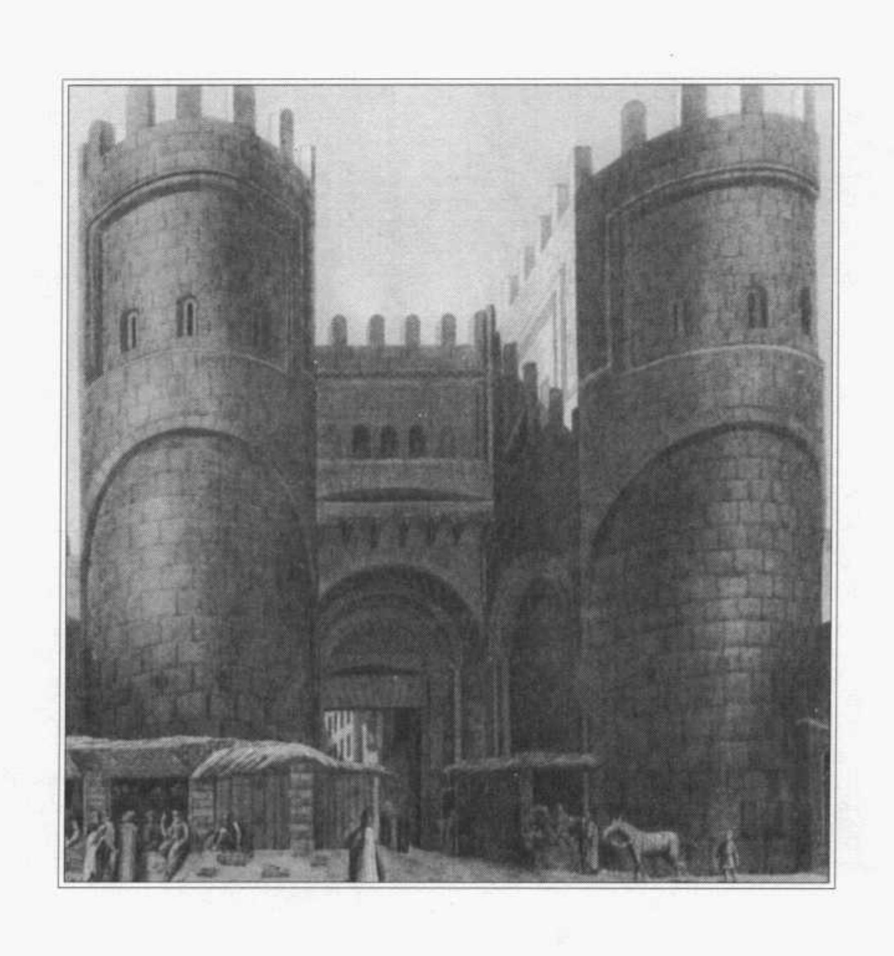
تزوج من إيطاليتين، واهدى زوجته الأولى ديوانه «من وحى إمرأة» والديوان الثانى بعنوان: «حواء والشاعر». ومن مؤلفاته: «الشرق والإسلام»، «فى أدب جوته»، «طاغور والمسرح الهندى»، «ألوان من الحب»، «بودلير الشاعر الرجيم»، «أبونواس – دراسات فى حياته وشعره»، «قلب عربى فى فيينا»، ومكتبته الخاصة التى احتوت ٢٥ ألف كتاب، تزدان بها دار الكتب والوثائق القومية فى قاعة تحمل إسمه...

وهذا المقال الذى نشر فى مجلة الهلال عام ١٩٦٧، تحدث فيه عن ذكرياته فى القاهرة الفاطمية، ومألوف عادته فى زيارته لها في رمضان سائراً على قدميه بين معالمها وأنوارها ومساجدها – شواهد عظمة العمارة الاسلامية – وأسواقها وشوارعها ومشربياتها وتقاليد ناسها.. ثم عرض لإحدى حكايات «ألف ليلة وليلة» دارت وقائعها (حكاية معروف الاسكافى) فى حى الدرب الأحمر الذى نشأ فيه، وارتبطت أحداثها بهذا الشهر الكريم.

أحلام رمضان .. فى ألف ليلة وليلة !

ما أهل فى كل عام هلال شهر رمضان، الا ذكرنى فى طويل الزمان، عهد الصبا الغابر فى بساطته وجماله، وتفانين احلامه وشطحات خياله: عهد صباى من حداثتى الاولى فى احضان القاهرة القديمة، تلك القاهرة التى كنا لا نذكرها الا باسم «المدينة»، وقد أخرجنا هذا الاسم من انه وصف عام للعاصمة المصرية، الى انه اسم كاسماء الاعلام تختص به القاهرة الفاطمية وما انضاف اليها من العصور الوسطى، بطابعها العربى الخالص فى مساجدها ومبانيها واسواقها وعادات أهلها...

ولا عجب أن يكون هذا الشأن شأنى والقاهرة القديمة. فقد نشأت فى حى الدرب الأحمر عند بابها الجنوبى «باب زويلة»، فكنت وأنا صبى لاتمر بى ليلة من ليالى رمضان أجتاز فيها هذا الباب الكبير «باب زويلة» الي «المدينة»، حيث مدينتنا فى تلك الليالى، تتمثل للعيان وفى الاذهان، بكل من المعنيين الحقيقى



والمجازى «مدينة النور»، تفيض به مساجدها المتألقة المنائر، وأسواقها العامرة المتاجر يجلو عروضها للنواظر آلف ضوء غامر، ودورها المتقاربة ذات المشربيات المتقابلة حافلة بالمصابيح المتلألئة. وفى الطرقات زرافات من الصبيان والصبايا ينشدون اناشيدهم جماعات، وهم فى الجيئة والذهاب، يهزون فى كل خطوة ومع كل كلمة فوانيسهم الموقدات. فلا أزال أشق بين الناس طريقى حتى يقوم فى وجهى كالسد اجتماع الحشد عند ابواب الجامع الازهر أو غيره من المساجد الجامعة الكبرى، فلا تزال هذه الجموع الحاشدة تتدافع بالمناكب، وأنا بينهم يكاد تنخلع كتفى وتنطبق اضالعى، حتى يتأتى لى ان انفلت بعد جهد جهيد الى عتبة المسجد فاجتاز الى صحنه، وقد نال منى التعب والاعياء... ولكن الله كان يعيننى فى كل مرة على تأدية فريضة الصلاة فى ساعتها.

وهأنذا التمس هنا أو هناك فى المسجد، دعامة مع دعائمة الحجرية أو عموداً من عمدها الرخامية يمكن ان اجلس عنده أسند اليه ظهرى لاستريح. فلا البث ان تتنبه أعصابى وسط هذه الوقدة المضاعفة من انوار المسجد فى رمضان. فاذا بى مستيقظ الحس، اقلب طرفى فى سقوفه الخشبية المحلاة بالنقوش المذهبة، وشبابيكه العالية من الجص المفرغ ذات الزجاج الملون، وعلى أعالى الجدر تلك الافاريز بالطراز الكوفى من الآيات القرآنية.

ثم هذا المحراب المجوف المكسى بالمرمر السماقى أو الفسيفساء العجيبة التفانين، أو القشانى البراق بتربيعاته البيضاء والزرقاء. وهذا المنبر من الخشب الثمين المحفور بالتقاسيم الهندسية، المرصع بالفصوص من عاج أو صدف. وهذا الكرسى التقليدى – كرسى المصحف – منفرج الزاوية ليوافق انفراجه فتحة المصحف ولو كان ضخما كأضخم ما عرف من المصاحف المخطوطة المزينة.

وهذه الدكة المرتفعة – دكة المبلغ – بدرجها ودرابيزنها، جميعها من الرخام الأبيض، وهذه الاقواس المعقودة على العمد أو الدعائم صفوفاً أفقية، بموازاة

جدار القبلة. ومن فوق القبلة، فى كبد السقف المسموك تجويفة، القبة عظيمة عميقة، حافلة اى احتفال بالزخارف والنقوش، متوهجة بالذهب، ومنها تندلى الثريا العظمى مهولة الجرم، جمة التفاريع، تتضاءل من حواليها أسماط القناديل المدلاة من الروابط الخشبية بين «البوائك». وعلى مسافة من الحرم، وفي بهرة المكان، بين سائر الايوانات ذات الاقواس، تلك الفسقية المرمرية تتوسط الصحن الفسيح المكشوف تعلوها قبة مثمنة. ثم من اناحية الباب دهليز المدخل ذو القبو المقنطر، وأرضه من الرخام الملون. وأخيرا مصراعا الباب المفتوحان، الملبسان من الخارج بالنحاس المنزل بالفضة.

هذه الروائع بعضها أو كلها فى هذا أو ذاك من المساجد الجوامع، تأخذ بناظرى وتوقع الروعة فى خاطرى، وتشغلنى في شتاتها وجملتها لحظات طوال، اذهل فيها عن التفكير فى غيرها.

وأخيرا أنتبه الى طول ما قضيته من الوقت فى جلستى، فأنهض للخروج بعد أن استوفيت راحتى، لكى أتم بقية زيارتى كمألوف عادتى فى رمضان. فلا ازال أجد السير على قدمى وسط الزحام نفسه والانوار نفسها، حتى انتهى من المدينة الى اطرافها الشمالية، حيث يقوم الى اليسار «باب الفتوح» والى اليمين «باب النصر»، وكلها من الآثار الكبرى الفاطمية التى ما برحت من معالم المدينة، مع ما بقى من أبوابها وأطلال اسوارها العظيمة.

هذه الزيارة المتكررة، التى كنت وأنا صبى أكررها كل ليلة من ليالى رمضان للقاهرة القديمة بطابعها الخاص العربى، كانت تذكرنى على الدوام من بين ما قرأته فى تلك السن من حكايات «ألف ليلة وليلة» – بحكاية بعينها، حكاية كان أول من عرفها منذ قرون هم جيران بطلها فى أيام الحكم العثمانى المملوكى فى القرن السادس عشر، وجميعهم من أهل الحى الذى نشأت بعدهم فيه وهو حى الدرب الأحمر. وفضلا عن أننى عشت حيث عاش بطل هذه الحكاية، فأننى حيثما كانت مسيرته فى القاهرة القديمة سرت، ولا شخصية من الشخصيات المصرية جاء فى أخباره ذكرها إلا ولى بعض العرفان لها والالمام بأمرها من قريب أو بعيد.

وكفى هذا كله داعياً لاهتمامى بهذه الحكاية حتى أننى كنت، ومازلت كلما أذكرنى إياها رمضان - والمرجح أن رمضان كما سنرى كان أوان حدوثها - أجدنى مشوقاً إليها، منساقاً الى معاودة قراءتها فى رمضان من كل عام مما يوقع فى روعى - على الرغم من كونها من الحكايات المطولات - أننى أصبحت حافظا لها عن ظهر قلب، وأننى لو شاء القراء اليوم لاعدتها على أسماعهم على الغيب، لا أخرم منها حرفاً.

ولكن لضيق المقام، سأكتفى من الحكاية بالمقدمة أسوقها بحروفها ولهجتها القاهرية على التمام بقدر الامكان. ثم استأذن بعدها فى الاستعانة بما يسمونه «حسن التخلص» لبلوغ الختام من أقصر طريق واذا قلت من أقصر طريق، فليس ذلك دفعاً للملال، فذلك أبعد شئ عن حكايات ألف ليلة، ولكن إبتعادا عن شطحات الخيال التى قد تحول، فى حالة التطويل، دون التصديق.

قالت شهرزاد :

مما يحكى ايها الملك السعيد، أنه كان فى مدينة مصر المحروسة رجل اسكافى يرقع الزرابين القديمة، وكان إسمه «معروف» وكان له زوجه اسمها فاطمة ولقبها «العرة»، وما لقبوها بتلك الا لانها كانت سريعة الى الشر فاجرة قليلة الحياء كثيرة الفتن. وكانت حاكمة غالبة على زوجها، وفى كل يوم تسبه وتلعنه ألف مرة، وكان يخشى شرها ويخاف من اذاها، لانه كان رجلاً عاقلا يستحى علي عرضه. لكنه كان فقير الحال، فاذا اشتغل بكثير صرفه عليها، واذا اشتغل بقليل ثارت ثائرتها عليه ونغصت عيشته، وجعلت حياته أحلك سواداً من صحيفتها عند الله والناس..!

ومن جملة ما اتفق لهذا الرجل من زوجته، انها قالت له:

«يامعروف، اريد منك فى هذه الليلة أن تجئ لى معك بكنافة عليها عسل نحل»

فقال لها :

«الله تعالى يسهل لى ثمنها وأنا أجئ لك بها فى هذه الليلة. والله يعلم أن ليس معى دراهم، ولكن ربنا يسهل».

فقالت له:

«انا ما أعرف هذا الكلام، أن سهل أو لم يسهل. لا تجيئنى الا بالكنافة التى بعسل النحل، وان جئت من غير كنافة جعلت ليلتك مثل بختك حين تزوجتنى ووقعت فى يدى»!

فقال لها:-

«الله كريم»

ثم خرج «معروف الاسكافى» والغم يتناثر من بدنه، فصلى الصبح وفتح الدكان وقال: اسألك يارب ان ترزقنى بثمن هذه الكنافة، وتكفينى شر هذه الفاجرة في هذه الليلة.

قعد فى الدكان الى منتصف النهار فلم يأته شغل، فاشتد خوفه من زوجته، فقام وأقفل الدكان. وسار متحيرا فى أمره من شأن الكنافة، فضلا عن أنه لم يكن معه من ثمن الخبز شئ. فلما مر على دكان الكنفانى وقف مبهوتاً واغرورقت عيناه بالدموع، فلحظ ذلك عليه الكنفانى وقال:

يامعلم معروف، مالك تبكى، اخبرنى بما أصابك».

فأخبره بقصته وقال له: إن زوجتى جبارة، طلبت منى كنافة بعسل النحل، وقد قعدت فى الذكان حتي مضى نصف النهار فلم يجئنى ولا ثمن الخبز، وأنا خائف منها».

فضحك الكنفانى وقال: «لا بأس عليك، كم رطلا تريد؟ «قال» خمسة أرطال».

فوزن خمسة أرطال وقال له: «السمن عندى. ولكن ماعندى عسل نحل، وانما عندى عسل قصب أحسن من عسل النحل، وماذا يضر اذا كنت بعسل قصب؟.

فاستحى معروف منه لكونه سيعطيه الكنافة ويصبر عليه بثمنها. فقال له: «هاتها بعسل القصب» فقلا له الكنافة بالسمن وأغرقها بعسل القصب، فصارت مما يهدى للملوك!. ثم قال له: «اتحتاج الى عيش وجبن» قال: «نعم» فناوله الكنفانى أربعة انصاف من الفضة ليشترى بها عيشاً، ويشترى بنصف جبنا، اما الكنافة كانت بعشرة انصاف.

فقال له :

«أعلم يامعروف أنه قد صار لى عندك خمسة عشر نصفا. رح الى زوجتك وتهيأ للمتعة فى ليلتك، ولسوف أمهلك يوما أو يومين أو ثلاثة حتى يرزقك الله. ثم لا تضيق على زوجتك فأنا أصبر عليك حتى تبقى عندك دراهم فاضلة عن مصروفك».

فأخذ معروف الكنافة والعيش والجبن، وانصرف داعياً للكنفانى. ومضى مجبور الخاطر وهو يقول: «سبحانك ربى ما أكرمك» ثم انه دخل على زوجته، فقالت له: «أما قلت لك هاتها بعسل نحل؟ كيف تعمل على خلاف مرادى وتحملها لى بعسل قصب!» فاعتذر إليها وقال لها: «انا ما اشتريتها الا مؤجلاً ثمنه». فقالت: «هذا كلام باطل. أنا ما آكل كنافة إلا بعسل النحل «وضربته بها فى وجهه وقالت له: «قم ياديوث» ولكمته فى صدغه فقلعت سنا من أسنانه ونزل الدم على صدره، فلم يسعه من شدة الغيظ الا ان ضربها ضربة واحدة لطيفة على رأسها. فقبضت المرأة على لحيته وصارت تولول وتقول: «يا مسلمين، يامسلمين!»

فدخل الجيران وخلصوا لحيته من يدها. ثم قاموا عليها باللوم يعيبونها ويقولون: «نحن نحمد الله على أكل الكنافة التى بعسل القصب.. ما هذا التجبر على هذا الرجل الفقير، إن هذا عيب عليك».

ومازالوا يلاطفونها حتى أصلحوا بينها وبين زوجها ولكن بعد ذهاب الناس حلفت ما تأكل من الكنافة شيئا، وكان «معروف» قد فعل به الجوع فقال فى نفسه: «هى حلفت ما تأكل، فأنا آكل الكل» فلما رأته يأكل صارت تقول له «ان شاء الله يكون أكلها سما يهرى بدنك يابعيد»!

فقال لها «مايكون هذا بكلامك». وصار يأكل ويضحك ويقول: «انت حلفت ما تأكلين من هذه الكنافة، فالله كريم، فان شاء الله فى ليلة غدا اجئ لك بكنافة تكون بعسل النحل وتأكلينها وحدك»!

وصار يطيب خاطرها وهى تدعو عليه، ولم تزل تسبه وتشتمه الى الصباح!

فلما أصبح الصبح، شمرت عن ساعديها لتضربه، فقال لها «أمهلينى وأنا أجئ اليك بغيرها»، ثم خرج الى المسجد وصلى وتوجه الى الدكان وفتحه، وجلس فلم يستقر به الجلوس حتى جاءه اثنان من طرف القاضى وقالا له: «قم كلم القاضى، فان امرأتك شكتك اليه، وصفتها كذا وكذا «فعرفها وقال» الله تعالي ينكد عليها».

ثم قام ومشى معهما الى ان دخل على القاضى فرأى زوجته رابطة ذراعها وبرقعها ملوث بالدم وهى واقفة تبكى وتمسح دعمومها فقال له القاضى: «يا رجل، الم تخف من الله تعالى! كيف تضرب هذه الحرمة وتكسر ذراعها وتقلع سنها وتفعل بها هذه الفعال!».

فقال له: «ان كنت ضربتها أو قلعت سنها فاحكم بما تختار». وانما القصة كذا وكذا والجيران أصلحوا بينى وبينها». واخبره بالقصة من الأول الى الآخر.

وكان ذلك القاضى من أهل الخير فأخرج له ربع دينار وقال «يارجل، خذ هذا واعمل لها به كنافة بعسل النحل، واصطلح أنت واياها».

فقال الزوج: «أعطه لها» فأخذته وأصلح القاضى بينهما وقال: «يا حرمة أطيعى زوجك. وأنت يارجل، ترفق بها»

وخرجا مصطلحين على يد القاضى وراحت المرأة من طريق، وزوجها من طريق آخر الى دكانه وجلس، واذا بالرسل أتوا له وقالوا «هات خدمتنا» فقال لهم: «إن القاضى لم يأخذ منى شيئا بل أعطانى ربع دينار». فقالوا «لا علاقة لنا بكون القاضى أعطاك أو أخذ منك، فان لم تعطنا خدمتنا أخذناها قهراً عنك». وصاروا يجرونه فى السوق. فباع عدته وأعطاهم نصف دينار ورجعوا عنه.

وحط «معروف» يده على خده وقعد حزينا حيث لم يكن عنده عدة يشتغل بها. فبينما هو قاعد واذا برجلين قبيحى المنظر اقبلا عليه، وقالا له: «قم يارجل كلم القاضى، فإن زوجتك شكتك اليه».

فقال لهما: «قد أصلح القاضى بينى وبينها».

فقالا له: «نحن من عند قاض آخر، فان زوجتك اشتكتك الى قاضينا».

فقام معهما وهو يحتسب عليها، فلما رآها قال لها: «أما اصطلحنا يابنت الحلال! قالت: ما بقى بينى وبينك صلح» فتقدم الزوج وحكى للقاضى حكايته وقال له: «ان القاضى فلانا أصلاح بيننا فى هذه الساعة».

فقال القاضى «يافاجرة حيث اصطلحتما لماذا جئت تشكين الى «قالت: «انه ضربنى بعد ذلك».

فقال لهما القاضى: «اصطلحا ولا تعد الي ضربها وهى لاتعود الى مخالفتك فاصطلحا. قال القاضى: «اعط الرسل خدمتهم».

وتوجه الاسكافى الى الدكان وفتحه وقعد فيها وهو مثل السكران من الهم الذى أصابه، فبينما هو قاعد واذا برجل اقبل عليه وقال له «يامعروف، قم استخف من هنا، فان زوجتك اشتكتك الى الباشا الوالى، ونازل عليك أبو طبق من طرف الديوان العالى».!

فقام، وقفل الدكان وهرب فى جهة «باب النصر».. وكان قد بقى معه خمسة أنصاف فضة من حق القوالب والعدة. فاشترى بأربعة انصاف عيشاً وبنصف جبنا، وفر هاربا منها.

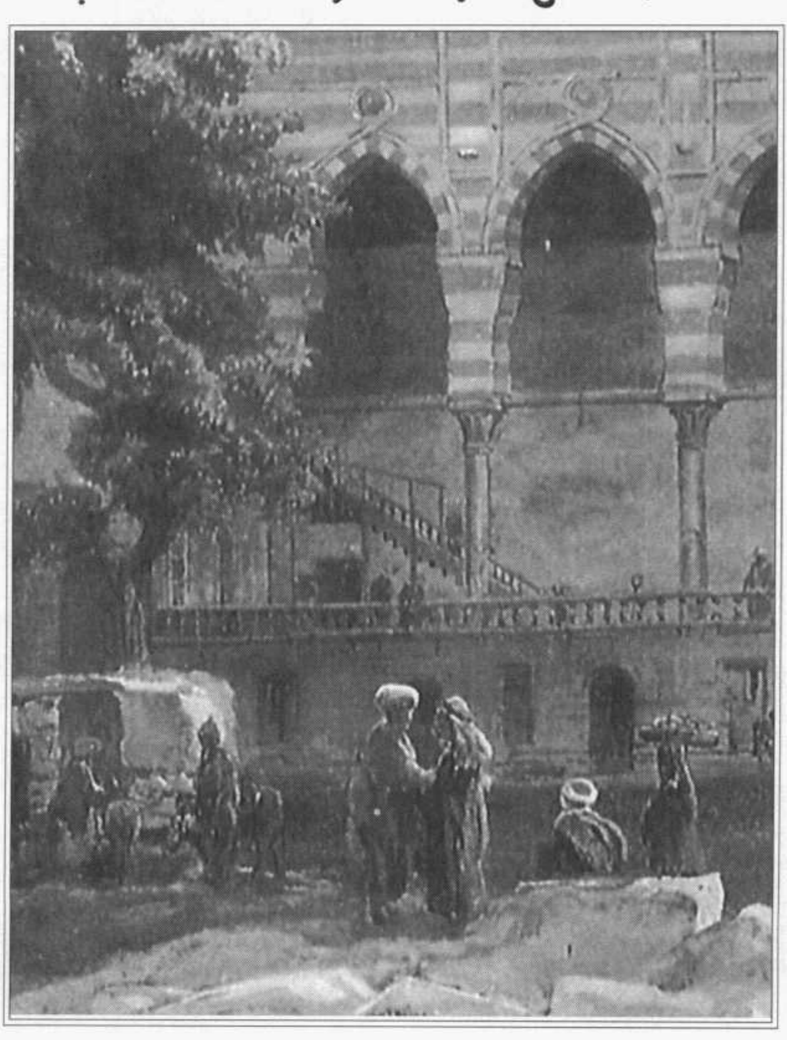
وكان في فصل الشتاء وقت العصر، فلما خرج على وجهه هائما بين الكبارى، نزل عليه المطر مثل افواه القرب، وابتلت ثيابه. فرأى موضعاً خربا فيه حاصل مهجور من غير باب، فدخل يسكن فيه من المطر وحوائجه مبتلة بالماء، فنزلت الدموع من اجفانه وصار يتضجر مما به ويبكى أحر البكاء مردداً: «أين أهرب من هذه الفاجرة! أسألك يارب أن تقيض لى من يوصلنى الى بلاد بعيدة لا تستدل على طريقى فيها».

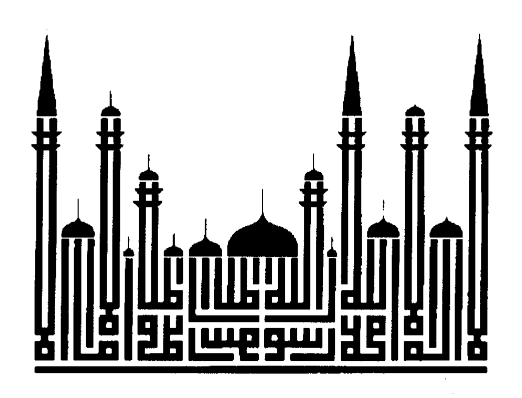
ونكتفى من كلام شهر زاد بهذه الصفحات، ونقول على طريقة القاصين من أبناء القرن العشرين أن معروف الاسكافى مازال على هذه الحال، حتى حل به الأعياء والكلال، فلم يلبث أن غلب عليه النوم، أو ركبه ما يشبه خدر النوم من الخيال والوهم، فتمثلت له وسط متاعبه وآلامه، أمانيه فى صورة الحلم، الحلم الذى سرعان ما يوقع فى روع اليائس ان قد تحققت له آخر الأمر السعادتان، النعيم والانتقام فى آن واحد.

ولكن شتان ما بين هذه الطريقة، طريقتنا هنا فى تعجل الختام لاجتناب الخوارق غير الطبيعية وتدخل الجان فى كل حين من الاحيان، وبين طريقتها، طريقة الأميرة شهرزاد فى ذلك «التوحيد العبقرى» بين العالمين المنظور والخفى، ذلك الوصل بين الطبيعى وما وراء الطبيعى، ذلك التدعيم للجهاد الانسانى باستنزال ملاك من السماء فى القليل النادر، أو تسخير جنى من مردة الجان، وهذا كثير فى ألف ليلة وليلة، سيان كان الجنى عامر المكان أو ممن سجنهم فى القماقم سليمان.

هذه الطريقة التى امتازت به شهرزاد أميرة القاصين الشرقيين فى العصور الوسطى، لا يستطيع مثلى من أبناء القرن العشرين بلوغ النجاح فى محاولاتها مع الاحتفاظ بسحر القصص كاملا مثلها من أجل هذا، استأذن القراء فى ان ارجوهم الرجوع الى شهرزاد نفسها، لمتابعة قضية «معروف الاسكافى» فى كتابها ليؤمنوا مثل «شهريار» ـ بتأثير فنها ـ ان هذا اليائس البائس قد تحققت له فى رمضان أحلامه فى التخلص من الآلام وتحقيق السعادة وحسن الختام.

رمضان فى كتابات الرحالة الأجانب





رمضان..

في كتابات الرحالة الأجانب

الرحالة الأوروبيون، من خلال رؤيتهم لأحوال المجتمعات الشرقية، وما تمثله من عالم غريب حافل بكل ما هو مثير - من وجهة نظرهم - قد عنوا برصد كل مظاهر التقاليد والمعتقدات الشعبية المتوارثة، وكان بينها مظاهر الاحتفال بشهر رمضان.

وقد شهد الرحالة البندقى «برنار دى بريد نباخ» ليالى رمضان فى القاهرة ـ منتصف القرن الخامس عشر ـ ووصف مظاهر بهجة الناس بهذا الشهر، إنارة المساجد والدروب، والانشاد وحلقات الذكر ودق الدفوف «حتى تعذر عليه النوم»!.. كما لاحظ أن الاسواق والحوانيت ومطابخ الطعام تظل مفتوحة طوال ليالى شهر رمضان.

كذلك الرحالة الإيطالى «فيلكس فابرى» الذى زار مصر عام ١٤٨٣م، فقد أعرب عن دهشته ليلة دخوله القاهرة لكثرة ما رأى بشوارعها من الأنوار والمشاعل والفوانيس المختلف ألوانها وأشكالها، يحملها الكبار والصغار، ولما استفسر عن ذلك الصخب، قيل له انه شهر رمضان وأن المسلمين يحتفلون به على هذا النحو الخاص.. وشاهد المسحراتى ـ الذى اعتقد انه أحد رجال الدين ! ـ حيث كان يمر ثلاث مرات فى الشوارع ليلاً ومعه طبلة يدق عليها منادياً الناس بأسمائهم.

ويقول الرحالة الفرنسى «جان باليرن » ـ **G. PAler ne** «الذى زار مصر عام ١٥٨١: «يحرص المصريون فى رمضان على توزيع اللحوم والصدقات على الفقراء ويتبادلون الزيارات والسهرات، ويقومون بإنارة فوانيس كبيرة ملونة أمام المنازل والحوانيت وفى المساجد».

وقد حرص بعض هؤلاء الرحالة على استئجار غرفة فى شارع رئيسى، ليتمكن من متابعة الاحتفالات بهذا الشهر.. وقد وصف الفرنسى: «فيلامون ـ **villsmont** عام ١٥٨٩ بعض مظاهر الاحتفالات بهذا الشهر.. مواكب دراويش الصوفية وحلقات الذكر، والمساجد المضاءة وزحام الأسواق، ومآدب الافطار التى يدعى إليها الأصدقاء.. ويصف المصريون بالكرم..ولديهم عادة جميلة، إذ يجلسون على الأرض ويأكلون فى فناء مكشوف أو أمام بيوتهم، ويدعون المارة الى الطعام فى صدق وحرارة!.

أما العالم والمهندس والمؤرخ الشهير «فرانسوا جومار ـ **F.gomsrd** أحد العلماء الذين صحبهم نابليون فى حملته الى مصر، فيقول:

«تحيا الأعياد الدينية فى القاهرة ببذخ شديد، فالناس جميعاً يعلمون أن رمضان هو شهر الصوم، فيمتنعون عن الطعام والشراب والتدخين والاستمتاع بأية تسلية بين شروق الشمس وغروبها، ولكن هذا الحرمان، الذى يطول أو يقصر حسب الفصل، يتبعه استمتاع كاف لنسيان هذا الحرمان، ويحتفى المسلمون بليالى رمضان، بينما يحضرون خلال النهار - فى جماعات كبيرة - وبورع شديد، دروس الفقة بالمساجد.. ومنهم من يتشاغل بالعمل وفى الغالب بالنوم! وفى المساء، تبدو الشوارع مضاءة صاخبة، ويجتمعون لتناول الحلوى والمشروبات والتدخين وينغمسون فى كل ألوان التسلية، وتظل الاسواق والمقاهى مفتوحة حتى أذان الفجر».

إدوارد لين أو «منصور أفندى» !

أما المستشرق البريطانى الشهير «إدوارد لين - E.Lane الذى شغف بمصر واختلط بناسها، وتأثر بعادات وتقاليد مجتمع القاهرة، حتى انه شارك المسلمون صلاتهم بالمساجد، وفى حلقات الذكر، راصداً تفاصيل الحياة اليومية، وسمى نفسه «منصور أفندى»!.. فقد حدثنا عن مشاهدته لطقوس ليلة رؤية هلال رمضان عام ١٨٣٥ فيقول:

«والليلة التى يتوقع أن يبدأ صبيحتها الصيام، تسمى ليلة الرؤية.. فيرسل عدد من الاشخاص الثقافة الى مسافة عدة أميال فى الصحراء، حيث يصفو الجو، لكى يروا هلال رمضان.. بينما يبدأ من القلعة موكب الرؤية الذى يضم المحتسب وشيوخ التجار وأرباب الحرف: الطحانين والخبازين والجزارين والزياتين والفكهانية، تحيط بهم فرق الانشاد ودراويش الصوفية، وتتقدم الموكب فرقة من الجنود.. ويمضى الموكب حتى ساحة بيت القاضى ويمكثون فى انتظار من ذهبوا لرؤية الهلال.. وعندما يصل نبأ ثبوت رؤية هلال رمضان، يتبادل الجميع التهانى، ثم يمضى المحتسب وجماعته الى القلعة، بينما يتفرق الجنود الى مجموعات يحيط بهم «المشاعلية» والدراويش، يطوفون بأحياء

المدينة، وهم يصيحون: يا أمة خير الانام.. صيام.. صيام.. أما إذا لم تثبت الرؤية فى تلك الليلة، فيكون النداء: غداً متمم لشهر شعبان.. فطار.. فطار...»!.

وأشار لين الى صمت الشوارع وتراخى حركة الحياة نهاراً، وقبيل المغرب، توضع مائدة الافطار ـ طوال شهر رمضان ـ فى غرفة الاستقبال، حيث يستقبل رب الدار ضيوفه، وتعد صينية فضية كبيرة تزدان بأطباق المكسرات والزبيب والحلوى وأوانى الشربات والماء، وفى الحسبان دائماً الضيوف الذين قد يهبطون بغته، وتجهز أدوات «الشوبك» للتدخين.. وبعد أذان المغرب، يتناول رب الدار مع أسرته وضيوفه أكواباً من شراب الورد أو البرتقال، ثم يؤدون صلاة المغرب وبعدها يتناولون شيئاً من المكسرات ويدخنون.

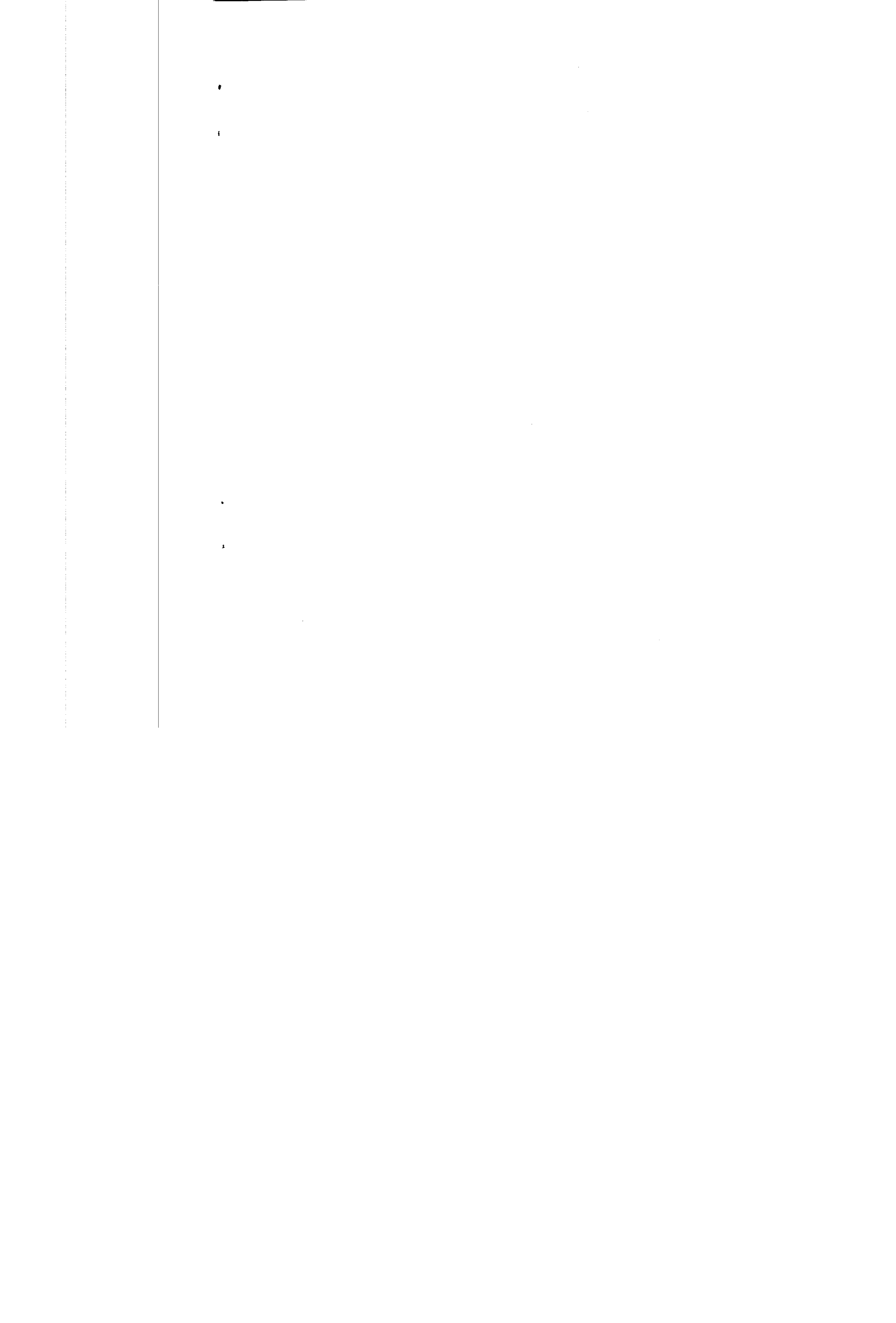
وبعد تناول شراب منعش، يجلسون لتناول افطارهم، غالباً من اللحوم واطايب الطعام، ثم يؤدون صلاة العشاء ويعقبها صلاة التراويح التى تؤدى جماعة فى المسجد، ثم يتدفق الناس الى الشوارع، ويتحول الليل الى نهار، ويرتاد العامة المقاهى ليستمعوا الى المنشدين ورواة السيرة الشعبية، ويعقد دراويش الصوفية حلقات الذكر وختمة القرآن فى منازل شيوخهم كل ليلة.

ويدور المسحراتى فى كل ليلة، ولكل منطقة مسحراتى خاص بها، يطلق المدائح لأرباب المنازل، ممسكاً بيده اليسرى «بازاً» صغيراً، وبيده اليمنى عصا أو قطعة من الجلد يضرب بها، عند كل وقفة ثلاث مرات، يرافقه صبى يحمل فانوسين.. موحداً الله ومصلياً على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصح يا غفلان.. وحد الرحمن.. أسعد الله لياليك «يا فلان» داعياً بالتقبل والحفظ لأهل الدار، ولا يذكر أسماء البنات وإنما يقول: أسعد الله لياليك ياست العرايس».

ويشير إدوارد لين الى ان المسحراتى كان أحياناً ينشد من قصص المعجزات الدينية كقصة الإسراء والمعراج، ويلتزم الصمت عندما يمر ببيت فى حالة حزن لوفاة عزيز.

ومن طريف ما رواه إدوارد لين.. أن نساء الطبقة المتوسطة كن يضعن قطعة نقود معدنية داخل ورقة ملفوفة ويشعلن طرفها ثم يلقين بها من المشربية الى





المسحراتى - حتى يرى موضعها - فينشد لهن بعض من المدائح النبوية أو حكايات المعارك بين «الضرائر»!.

وأشار كذلك الى دعاء «الابرار» من وفوق المآذن عقب صلاة العشاء والذى يشمل الآية القرآنية: «إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله..» والدعاء الثانى كان نحو منتصف الليل ويسمى «السلام» عبارة عن مجموعة أدعية وثناء وصلوات على رسولنا الكريم.

وتحدث إدوارد لين عن العشر الأواخر من رمضان، وقال إن غالبية المؤمنين يفضلون قضائها فى جامع المشهد الحسينى وجامع السيدة زينب.. وأضاف: «إحدى هذه الليالى وهى الليلة السابعة والعشرين تعرف بليلة القدر.. وهى الليلة التى نزل فيها القرآن على محمد - وهى خير من ألف شهر - ويعتقد المسلمون أن أبواب السماء تكون مفتوحة فى هذه الليلة، فيستجاب فيها الدعاء..».

ومن غريب ما رواه ذلك الاعتقاد بأن الماء المالح يتحول الى ماء حلو سائغ شرابه فى هذه الليلة المباركة.. «فيجلس الأتقياء فى هذه الليلة بخشوع كبير، وأمامهم إناء فيه ماء مالح، وبين حين وآخر يتذوقون طعمه ليروا إن أصبح حلو المذاق فيتأكدون أن هذه الليلة هى: ليلة القدر» !!.

ريتشارد بيرتون:

ويقول العالم والرحالة المستشرق الايرلندى «ريتشارد بيرتون» خريج اكسفورد والضابط بالجيش البريطانى فى الهند، وقد قام برحلات استكشافية فى شرق وغرب أفريقيا، وجزيرة العرب ووصل الى مصر سنة ١٨٥٣: «تراعى مختلف الطبقات شعائر هذا الشهر بإخلاص شديد - رغم قسوتها ! - فلم أجد مريضاً واحداً اضطر ليأكل حتى لمجرد الحفاظ على حياته.. وحتى الآثمين الذين كانوا قبل رمضان قد إعتادوا السُكر والعربدة - حتى فى أوقات الصلاة - قد تركوا ما كانوا فيه من إثم، فصاموا وصلوا!.. والأثر الواضح لهذا الشهر

على المؤمنين هو الوقار الذى يغلف طباعهم.. وعند اقتراب المغرب، تبدو القاهرة وكأنها أفاقت من غشيتها، فيطل الناس من النوافذ والمشربيات يرقبون لحظة خلاصهم.. بينما البعض منهمك فى صلواته وتسبيحه، وآخرون يتحلقون فى جماعات أو يتبادلون الزيارات.

أخيراً.. انطلق مدفع الافطار من القلعة، يا للسعادة.. ويجلجل صوت المؤذن جميلا داعياً الناس الى الصلاة، ثم ينطلق المدفع الثانى من قصر العباسية «سراى عباس باشا الأول» وتعم الفرحة أرجاء القاهرة.. التى كانت صامتة.. وينتقل احساس الترقب المبهج الى اللسان الجاف والمعدة الخاوية والشفاة الواهنة، فتشرب «قلة» من الماء.. ثم تصفق طالباً ـ فى عجلة ـ الشيشة وقدحاً من القهوة.. ثم تنتظر مباهج المساء.

البرت فارمان:

وقد رصد «البرت فارمان» فى يومياته الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر فى نهاية عصر اسماعيل وبداية عهد محمد توفيق، وكان فارمان قنصلاً عاماً للولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٨٧٦ وقضى بمصر خمس سنوات.. وعن انطباعاته التى سجلها عن شهر رمضان ومظاهر الاحتفال به، يقول:

«شهر رمضان يبدأ فيه سفر الحجاج، حيث يعدون أنفسهم للقيام بهذا الواجب المقدس، وهو الشهر الذى نزل فيه الوحى على ابراهيم، وبعث فيه بالتوراة الى موسى وبالانجيل الى عيسى، وأنزل فيه القرآن على محمد.. وفيه تفتح أبواب السماء للتائبين.

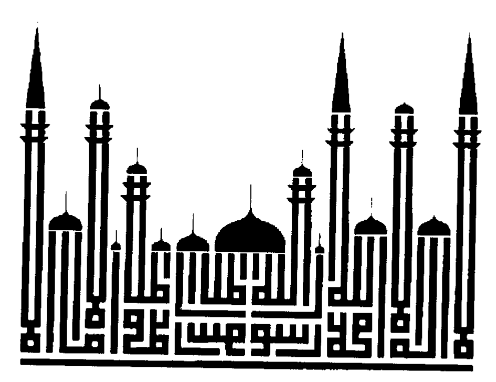
ولا ثبات أول يوم فى رمضان، يجب رؤية الهلال عملياً، فيخرج الرجال الى التلال العالية خلف القلعة، بمجرد أن تثبت لهم رؤية الهلال يعودون بالبشرى، ولابد من إثبات ذلك كتابة، وصدور إعلان من أصحاب المقامات الرفيعة المجتمعين ببيت القاضى.. وتنطلق المدافع من القلعة، وتسير المواكب الرسمية والشعبية المبتهجة فى أرجاء العاصمة معلنة بدء صيام رمضان.

وعندما توشك الساعات المضنية من النهار ـ شديد الحرارة ـ على الانتهاء، ينتظرون فى صمت دوى مدافع القلعة، وتجلجل أصوات المؤذنين.. والظمأ هو أول ما يجب إطفاؤه بجرعة من ماء النيل المقدس وتشعل السجاير ويعد البلح والفاكهة والمشروبات المرطبة، ثم ينهمك الجميع فى أطايب الطعام.. وفى رمضان تؤجل الأعمال الشاقة، والمطاعم والمقاهى فى ذروة رواجها، وتزدان الشوارع والبيوت والمساجد بالأنوار، وتمضى ثلاثون يوماً ثم يعلن مدفع القلعة انتهاء الصيام.. وفى صباح اليوم التالى، الموافق أول شهر شوال، يبدأ «العيد الصغير» ثلاثة أيام هى موسم للزيارات والمقابلات والاحتفالات، وارتداء الملابس الجديدة، وتقديم الهدايا الى الأطفال والخدم والفقراء، وتبادل صوانى «الكعك بالسكر» كتقليد مصرى متوارث!.

العيد فى مصر الإسلامية







الاحتفال بعيد الفطر

فى مصر الاسلامية

تــوارثــت الأمــــــــــة
الإسلامية -عبر عصور تاريخية
مـختلفة ومتصلة- الاحتفال بالأعياد
الدينيـة والقـومـيـة.. وذاكرة تاريخ مـصـر
مـازالت تحـتفظ بتـفاصيل مـواكب ومشـاهد
الاحتفالات الرسمية والشعبية بهذه المناسبات
منذ عـصـر الدولة الفـاطمـيـة. كـانت الاحـتفـالات
الفاطمية الباذخة ترتكز على اظهار قوة الخليفة
وسلطانه كـحـاكم إلى جـانب نفـوذه الـديـنى..
وكان «عيد الفطر» من المناسبات التى يخرج
فـيـهـا الخـليـفـة من قـصـره فى مـوكب
مهيب يبدأ من «رحبة العيد»..

وكانت هذه الرحبة فى الربع الشمالى - الشرقى من القصر الشرقى الكبير، يخرج الخليفة فى أبهى زينته بين كوكبة من الحاشية والحرس الخاص وأربعون من النافخين فى الأبواق (عشرة أبواق من الذهب وثلاثون من الفضة).. وكان يطلق على عيد الفطر -فى هذا الزمان- عيد الحلل، حيث توزع فيه الخلع والعمائم والملابس من «دار الكسوة» على رجال البلاط وعامة الناس، بينما فى غير هذا العيد توزع على الأمراء والخاصة فقط.

سماط الخليفة!

وكان الخليفة الفاطمى حريصاً على تصدر «السماط الرسمى» الذى يقام فى «قاعة الذهب» بالقصر الفاطمى الشرقى، وكان يوضع على السماط الملكى: أوانى رائعة من الذهب والفضة والصينى، يتوسطها ٢١ طبقاً ضخماً، فى كل واحد منها ٢١ خروفاً، و٣٥٠ من الدجاج ومثلها من الحمام فى أطباق من الخزف الفاخر، إلى جانب كميات من اللحوم التى أعدت فى مطابخ القصر، وكميات هائلة من الحلوى والكعك والشربات أعدت فى «دار الفطرة» ويستمر السماط إلى ما قبل صلاة الظهر، ولا يرد عنه أحد من الناس حتى يفنى عن آخره!

وقد وصف عدد من المؤرخين هذا السماط، الذى كان يحمل فى احتفال عظيم يوم وقفة العيد، يشق به الشارع الأعظم (المعز لدين الله حالياً) حوله «المجانية وأفراس الخيال والسودان والطبالون ويجتمع الناس فى الشوارع لمشاهدته»!

عصر الدولة العثمانية:

وفى عصر الامبراطورية العثمانية، كان الاحتفال الرسمى يبدأ عقب أداء صلاة فجر أول أيام العيد، حيث يصعد أمراء الدولة والقضاه فى موكب إلى القلعة، ويتوجهون إلى جامع الناصر محمد بن قلاوون داخل القلعة لأداء صلاة

العيد، ثم يصطفون لتهنئة الباشا.. وفى اليوم التالى. كان الباشا ينزل للاحتفال الرسمى بالعيد فى «الجوسق» المعد له بميدان الرميلة (القلعة) والذى فرش بأفخر الوسائد والطنافس، ويتقدم لتهنئة الأمراء الصناجق (كبار البكوات المماليك) والاختيارية (كبار الضباط) وكتخدا الينكجرية (الانكشارية) وتقدم القهوة والحلوى والشربات، وتضوع روائح المسك والبخور ثم يخلع الباشا على أرباب المناصب والأمراء، كما يأمر بالافراج عن بعض المساجين.

ويسهر الناس ليلة العيد فى ابتهاج وسرور، وقد أعدوا الكعك والحلوى لتقديمها للأهل والزوار، ويأخذ رب الأسرة زينته ويصطحب أولاده إلى المسجد لأداء صلاة العيد .. وكان من المعتاد تناول السمك والفسيخ فى أول أيام العيد، وما زالت هذه العادة شائعة إلى يومنا هذا. كما اعتاد الناس زيارة المقابر للتصدق على أرواح موتاهم واشعارهم بالأنس والمحبة. ويحرص الشباب على الخروج فى جماعات للنزهة فى النيل، كما يشهد خليج القاهرة وبركة الأزبكية وبركة الفيل وجزيرة الروضة ازدحاماً هائلاً.. ويشير مؤرخنا «عبدالرحمن الجبرتى» إلى أن مدافع القلعة كانت تطلق طوال أيام العيد الثلاثة فى الأوقات الخمسة.

الكعك وطلعة العيد:

فى الثلث الأخير من شهر رمضان، يبدأ الناس فى الإعداد لعيد الفطر، وأبرز مظاهر هذه الاستعدادات: «كعك العيد».. ويروى ان عادة صنع الكعك ترجع إلى عصر مصر الفرعونية، حيث كانوا يضعونه مع الموتى داخل المقابر.. وكانوا ينقشون على الكعك رسم الشمس «آتون» التى عبدوها لزمن طويل.. وحتى يومنا هذا، تفضل بعض السيدات نقش الكعك بدلاً من استخدام القوالب المعدنية والبلاستيكية التى شاع استخدامها.. ومن المدهش ان القاهرة الاسلامية قد عرفت فكرة القوالب، فمتحف الفن الاسلامى يحتفظ ببعض منها مكتوب عليه: «بالشكر تدوم النعم».. «كل هنيئاً».. «كل واشكر»!

أمـا فى الأعـياد، فكانوا يشكلونه على هيـئة عـرائس، ومـازال هذا التـقليـد متبعاً فى بعض قرى وريف مصر، حيث تصنع الأم عدداً من العرائس بعدد أطفالها.

كذلك تحرص الأمـهات -حتى الآن- خاصة فى الأحياء الشعبية، على أن يرسلن لبناتهن المتزوجات حديثاً فى ليلة أول عيد عقب عرسهن بسلة أو صينية كبيرة مملوءة بالكعك يطلق عليها «الزيارة» أو «عيدية الكعك».

وفى «طلعة العيد».. تحرص المصريات - خاصة فى الريف وصعيد مصر- على تقديم كعك على هيئة «حلقات» مغطاة بالسكر، ليفرق على الفقراء بالمقابر، ففى معتقداتهن المتوارثة أن «ملاك الرحمة» يقوم بتعليقها من منتصفها فى أحد فروع شجرة الحسنات!

مع «منصور أفندى»!

وعن انطباعاته بالنسـبة لعيد الفطر، يقول المستـشرق الرحالة البـريطانى الشهير إدوارد لين أو «منصور أفندى» فى فبراير سنة ١٨٣٤.

يحتفل المسلمون فى الثلاثة الأيام الأولى من شـهر شوال بالعيد الصـغير: هذا العيـد الذى يعلن انتـهاء صوم رمضـان، فـيحتـشد المصلون بعد طلوع الشمس مباشرة فى أبهى حلة فى الجوامع، ويؤدون ركعتين سنة العيد تليها الخطبة، ويهنىء الأصدقـاء بعضـهم البـعض الذين يلتقـون فى المسـاجد وفى الشـوارع، ويتبادلون الزيارات المنزليـة، ويحرص الجـميع على ارتداء مـلابس حتى أدنى الطبقات، فهو تقليد يشمل الجميع ولو اقتصر الأمر على شراء حذاء جديد فـقط!.. كذلك يقدم أرباب البيوت ثياباً جـديدة لخدمـهم الذين يحصلون أيضـاً على «العيـدية» من الزوار الذين أتوا للتـهنئـة بالعـيد، ويأكل معظم أهل القاهرة أيام العيد: الكعك، الفطير، الشريك، السمك الملـح وكميات هائلة من المكسـرات.. والبـعض يفضـل أطبـاقـاً من اللحم والبصل والطحينة.. ومـعظم محلات العاصمة تغلق أبوابها خلال أيام العيد.

وتقوم بعض العائلات -خاصة النساء- بزيارة مقابر موتاهم، وتكثر مشاهدة النساء فى صباح العيد وفى المناسبات الدينية الأخرى فى طريقهن إلى المدافن بضواحى القاهرة، حاملين سعف النخيل وباقات الريحان لوضعها فوق القبور.. ويحملن أيضاً سلال الفطير والكعك والشريك والتمر لتوزيعها على الفقراء الذين يكثرون فى المدافن فى هذه المناسبات، وقد ينصب البعض خياماً بجوار القبر إذا كانت الزيارة ستستمر اليوم بأكمله، وربما تمتد إلى صباح اليوم التالى، كذلك تفعل بعض العائلات التى تملك مدافن خاصة تتوافر بها أماكن للاقامة وراحة النساء، وتشهد قرافة باب النصر على الطريق الصحراوى بشمال القاهرة نشاطا مكثفا فى العيدين.

وينطلق الناس فى بهجة ومرح جنونى، وفى كل منطقة ترى تجمعات تستمتع بمشاهدة رواة القصص والسير الشعبية والغناء ورقص العوالم والمهرجين والبهلوانات والألعاب السحرية والمصارعين والأراجوز والقرداتية والحواه وسباقات الخيل والرماية.

البرت فارمان:

أما «البرت فارمان» قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر عام ١٨٦٩ فى عهد الخديوى اسماعيل - فقد وصف لنا «بروتوكول» استقبال الخديوى للمهنئين فيقول:

«فى الساعة السادسة من صباح يوم العيد، تبدأ مقابلات الخديوى باستقبال كبار ضباط الجيش، ثم يتقدم الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة والعلماء والقضاة وكبار التجار والأعيان- طبقاً لترتيب أعد مسبقاً- ونحو الساعة الحادية عشر يتقدم بالتهنئة قناصل الدول الأجنبية، الذين تقدم لهم القهوة ويدخنون النارجيلة ويتبادلون حديثاً ودياً مع الخديوى.. وعقب العيد تعد العدة لخروج المحمل وموكب الحجيج فى الثالث والعشرين من شوال.

فهرس الموضوعات

عرفة عبده على

- عضو اتحاد الكتاب

- نشر العديد من الدراسات والمقالات بالصحف والدوريات المصرية والعربية فى أدب الرحلات وتاريخ القاهرة وتاريخ اليهود فى مصر والتراث الشعبى

- مؤلفاته:

١ـ تهويد عقل مصر	دار سينا	١٩٨٩
٢ـ رحلة فى زمان القاهرة	مكتبة مدبولى	١٩٩٠
٣ـ جيتو إسرائيلى فى القاهرة	مكتبة مدبولى	١٩٩٠
٤ـ وصف مصر بالصورة	دار الشروق	١٩٩٣
٥ ـ موالد مصر المحروسة	دار عين	١٩٩٥
٦ـ يهود مصر بارونات وبؤساء	مؤسسة ايتراك	١٩٩٥
٧ـ مملكة الاقطاب والدراويش	الهيئة العامة لقصور الثقافة	١٩٩٦
٨ـ القاهرة فى عصر اسماعيل	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٧
٩ـ القاهرة بالفرشاه الاوروبية	وزارة الثقافة	١٩٩٨

رقم الإيداع ١٧٣٨٦ / ١٩٩٩
الترقيم الدولى: ٥ - ٢٧٧ - ٢٣٦ - ٩٧٧ ISBN

شركة الاعلانات الشرقية - م دار « الجمهورية» للصحافة